أبعاد التجربة الشعرية
في
شعر محمود حسن إسماعيل

الدكتور/ جمال عبد النبي حسانين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي لا يليق بالحمد أحد سواه ، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه سيدنا "محمد" عبد الله ورسوله ، خير من تكلم ، وأفصح من نطق بلسان عربي مبين ، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم ٠

وبعد ٠٠

فقد كانت النزعة الوجدانية والتعبير عن التجارب الشعرية المرتبطة بأحاسيس الشاعر الوجدانية هي مذهب شعراء جماعة أبولو ، تعبيرا عن وجدانهم الفردي ، وتصويرا لتجاربهم الذاتية ، ولهذا لم يتسع شعرهم للوجدان الاجتماعي ولا للمساهمة في الشئون الوطنية إلا قليلا ؛ لانشغالهم بما كان يعتمل في نفوسهم من آلام وأحزان ، حتى كان هذا الاتجاه الفردي الذي سلكوه موضع مؤاخذة ونقد من أنهم تركوا قضايا عصرهم ووطنهم وما يخوض من معارك في سبيل الاستقلال والحرية ، ومحاربة الظلم والجهل والتحكم والسيطرة ، والعمل على التغلب على المشاكل الاجتماعية والأخلاقية التي فرضت نفسها في هذه الفترة وفزعوا إلى الحديث عن حبهم وهيامهم وعشقهم وهجر الحبيب إلى غير ذلك ٠

إلا أننا نرى شاعرا من هذه الجماعة يند عن أقرانه ، ويشذ عن نظرائه ويجعل من شعره ميدانا للتعبير عن الوجدان الجماعي فضلا عن تجاربه الخاصة إذ يعد من أكبر شعراء "أبولو " تمثيلا لهذا الاتجاه وتعبيرا عن هذا الجانب فعالج كثيرا من قضايا مجتمعه ، ساعده على ذلك كثرة تدفقه بالشعر إذ اخرج أربعة

عشر ديوانا ، كان أولها ديوانه الرائع بعنوان " أغاني الكوخ " عرض فيه لكثير من التجارب التي تمثل هذا الجانب فعبر عن أحزان القرية والفلاح ، ونادي

بالثورة ، وهتف للوطن وغنى للحب والجمال ، وتحدث عن الطبيعة ونظم القصائد في كل أحداث مصر القومية من سنة ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٧٠ ؛ لهذا آثرت أن أتناول أبعاد تجربة الشاعر من خلال هذه الزاوية الاجتماعية الفردية وبخاصة وأنه قد انفرد من بين الكثيرين من أقرانه ، فوقع موقعا وسطاً بين الرومانسي و الواقعي ، ووقف شامخا فوق قيود الاتجاهات الأدبية ، ونأى عن التعبير عن جسد المرأة وعاش منافحا عن قضايا الفقراء من الريفيين البسطاء فضلا عن كثرة أعماله الأدبية والإبداعية ، وتفرده بالنظرة إلى الأشياء ، وفي سبيل الوصول لهذه الغايات قسمت بحثي إلى ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة ، وتلحق بها خاتمة ، وثبت بأهم المراجع ، وقد جاءت المباحث الثلاثة على النحو الآتي :-

المبحث الأول وعنوانه : **الشاعر ومؤثرات إبداعه ، ويشمل :-**

أولا : الشاعر **ثانيا :** تجربته **ثالثا :** مؤثرات في أبعاد تجربته

المبحث الثاني ، وعنوانه **: أبعاد التجربة الشعرية** ، ويشمل :-

أولا : البعد الاجتماعي **ثانيا :** البعد الوطني **ثالثا :** البعد الجمالي

رابعا : البعد الإنساني **خامسا :** البعد الصوفي ٠

المبحث الثالث ، وعنوانه **: أبعاد التجربة دراسة فنية ، ويشمل :**

أولا : خصائص التجربة الشعرية ٠٠٠

ثانيا : أبعاد التجربة ووحدة القصيدة ٠

ثالثا : أبعاد التجربة والعاطفة ٠

رابعا : أبعاد التجربة والصور الشعرية ٠

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ٠

المبحث الأول : الشاعر ومؤثرات إبداعه

أولا : الشاعر

مولده ونشأته

ولد "محمود حسن إسماعيل" في الثاني من يوليو عام ١٩١٠ بقرية (النخيلة)* التابعة لمركز (أبوتيج) بمحافظة أسيوط .

يقول وهو يتحدث عن نشأته : عشت في قريتنا على مشارف نهر النيل أشارك في العمل ، أعزق الأرض ، وأبذر الحب ، أتابع البذرة منذ غرستها حتى الحصاد ، وتعلمت في الخُص ودرست فيه ، وتقدمت إلى امتحان شهادة "البكالوريا" من الخارج ، وحصلت عليها ، كنت أقرأ في الخص الصحف وخاصة (البلاغ الأسبوعي) وكانت هذه الصحف تأتي إلى الباشا صاحب الضيعة المجاورة لحقلنا ، ولم تكن لدي في الخص غير الكتب المدرسية ولم أقرأ شعرا غير المحفوظات المقررة ، ومن هذه المحفوظات بدأ رفضي لكل قول مكرر وتعبير زائف .

انتقل الشاعر من قريته إلى القاهرة ، والتحق بكلية دار العلوم التي كانت حينذاك تسمى " دار العلوم و الأدب " وتخرج منها عام ١٩٣٦ م حصل على الليسانس في العلوم العليا ، وقد اكتسب ثقافة واسعة ، وأتيح له من التجارب ما لم يتح لزملائه حتى هزجت قيثارته بأنغام ديوانه الأشهر (أغاني الكوخ) إذ

كان مدرسة متميزة من مدارس الشعر، تخرج منها العديد من الأسماء اللامعة في عالم الشعر، [1]

صورة الرجل وشخصيته

كان "محمود حسن إسماعيل" فارع الطول ممتلئ القوام ذا بشرة صعيدية سمراء يحمل جسده رأسا كبيرا ذات شعر كثيف ، متداخل التجاعيد ، ذا ثغر أفلج ، وصوت عميق أجش ، صعيدي النغمة [2].

كان حاد الطباع ، عصبي المزاج ، سريع التأثر لذا كان قليل الأصدقاء ، يؤثر العزلة والتأمل ، يمثل الحزن المصري الضارب في أعماق الريف منذ آلاف السنين كان يعشق القوة ويكره الضعف ، يعيش نهاره نسرا جبارا متجهم الوجه ، فإذا أتى الليل كان حمامة وديعة متدفقة بكل الأحاسيس العذبة الرقيقة كما كان أنانيا أنانية طاغية [3]

كان متقلباً دائم التوتر، غريباً في أطواره ، وهذا التقلب والتوتر في صلاته وعلاقاته، يرجع الكثير منها إلى وعاء نفسه كشاعر ملهم وأنه عانى

---

*قرية النخيلة كان لها من اسمها نصيب إذ يكثر فيها النخيل و البساتين المطلة على حافة نهر النيل **في شارع من شوارع (النخيلة) اسمه (شارع الراهب) وبجوار بيته كانت هناك كنيسة كان يسمع أجراسها ، ويرى عندها بعض رجال الدين المسيحي؛ أما بيته ففيه القرآن يتلى والصلوات تقام.**

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ، دار سعاد الصباح، القاهرة ٢٠٠٦م ، **وينظر مقدمة كتاب أعلام أسيوط ،كتاب صادر عن محافظة أسيوط سنة ١٩٨٨م .**

(٢) **التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل د \ مصطفى السعدني صـ ١٩ منشأة المعارف الإسكندرية د \ ت**

(٣) **السابق صـ ١٩ .**

واكتوى بالكثير منذ جاء طري العود من قريته النخيلة إلى القاهرة ، كما كان مجدداً دائب التحليق، طموحاً، هادراً، ثائراً.

مكانته

استأثرت التجربة الشعرية بحياة"محمود حسن إسماعيل" واستغرقت كل وجوده وجهوده وكانت القاهرة تنتظر شاعراً يملأ فراغ "شوقي وحافظ" وظهر فجأة ديوان "أغاني الكوخ" وإذا بشاعر مجدد [1] يختلف شعره عن بقية الشباب يدل نسيج شعره على أنه متمرس يعالج مضموناً جديداً استوحاه من بيئة القرية والفلاح وأحس أدباء هذه الفترة ونقادها أن صاحب هذا الاسم هو الموعود بالمكانة [2]

قال فيه الدكتور" مندور" : إنه شاعر وحشي الطاقة الشعرية وعنيفها ... وحينما سئل العلامة "محمود شاكر" عن قرض الشعر قال: تركت

(١) ظهرت ريادة حركة الشعر في مصر قبل حركة الشعر الحر في العراق التي أرخ لها مؤرخو الأدب بقصيدة (الكوليرا) لـ(نازك الملائكة) بما يقرب من عشرين عاما، وكان من رواد هذه الحركة محمود حسن إسماعيل، فقد نشرت (مجلة أبوللو) في عدد فبراير ١٩٣٣ قصيدته (مأتم الطبيعة) وقدمتها بعنوان قصيدة من الشعر الحر ، ديوان نهر الحقيقة ج٤ صـ ١٨٣٩ .

(٢) ينظر محمود حسن إسماعيل مدخل إلى عالمه الشعري د\ عبد العزيز الدسوقي صـ ١٥ سلسلة كتابك دار المعارف ١٩٧٨ .

الشعر "لمحمود حسن إسماعيل" إيمانا منه بروعة شعره التي اعتقد أنه لن يستطيع مجاراتها إن كتب الشعر [١]

ويقول د " محمد فتوح أحمد" متحدثا عن تجربته: " إن التجربة الحية في معظم نتاجه تجربة رومانتيكية يشوبها اهتمام دائب باكتناه أسرار المجهول واكتشاف أسرار النفس الإنسانية ، مما يضفي على شعره مسحة صوفية دقيقة"[٢]

أعماله ونتاجه الأدبي

عمل محرراً بالمجمع اللغوي سنة ١٩٣٧ و لم يلبث أن انتقل مستشاراً ثقافياً بالإذاعة المصرية وعمل فيها عدة سنوات ١٩٣٨ ثم عمل مديرا لمكتب وزارة الشئون الاجتماعية ١٩٤٤ ، ثم توالى مراقبة الثقافة بوزارة المعارف ١٩٥٠ ثم عاد إلى الإذاعة سنة ١٩٥٢ ثم أصبح مراقبا عاما للبرامج الثقافية .

وبعد أن أحيل إلى المعاش سافر إلى الكويت ليعمل خبيرا بإدارة بحوث المناهج بوزارة التربية حيث عمل مدة سنتين أو ثلاثاً ، وقد أثار شعره الكثير من الجدل، فأشاد به بعض النقّاد باعتباره شعراً ذا أبعاد عميقة ، وهاجمه آخرون باعتباره شعراً غامضاً بعيداً عن أرض الواقع ، يجسد

(١) ينظر الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الثالثة د \ محمد مندور صـ ١٠٠ معهد الدراسات العربية .

(٢) الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر د \ محمد فتوح أحمد صـ ١٩٩ دار المعارف ١٩٧٧ .

أخيلة مغرقة في الرمزية أما من حيث نتاجه الأدبي فهو إنتاج غزير وفير ما بين دواوين شعرية [١] وأعمال أدبية [٢]

طابع شعره

يقع " محمود حسن إسماعيل " موقعا وسطاً بين القديم و الحديث ويصعب على قارئ شعره أن يسلكه في مذهب معين كالرومانسي ، و الواقعي ، و الرمزي لأنه يجمع من أبرز سمات التجديد لديه ، كان شاعراً جزلاً فخم الألفاظ قوي العبارات متنوع اللغات ، بدأ من خلال التراث لكنه لم يقلد في الحقيقة ، وإنما جدد كثيرا ، تمرد على عمود الشعر التقليدي ، ويعد من أوائل الذين قالوا الشعر الحديث قبل الكثيرين من الشعراء مثل " بدر شاكر السياب" و" نازك الملائكة " و"على أحمد باكثير" و"صلاح عبد الصبور" و"محمد عبد المعطي حجازي" و"خليل حاوي" وغيرهم .. ودليل ذلك قصيدته التي نشرت في حينها في رثاء " أحمد شوقي" أمير الشعراء [٣].

(١) وهي على الترتيب دواوينه الشعرية: (١) أغاني الكوخ ، ١٩٣٥ م. (٢) هكذا أغني ، ١٩٣٧م(٣) الملك ، ١٩٤٦م (٤) أين المفر، ١٩٤٧م (٥) نار و أصفاد ، ١٩٥٩م(٦) قاب قوسين ، ١٩٦٤م (٧) لابد ، ١٩٦٦م(٨) التائهون ، ١٩٦٧م (٩) صلاة و رفض ، ١٩٧٠م (١٠) هدير البرزخ ١٩٧٢م(١١) صوت من الله ، ١٩٨٠م (١٢) نهر الحقيقة ، ١٩٧٢م (١٣) موسيقى من السر ١٩٧٨م (١٤) المغيب ، ١٩٩٣م.

(٢) ومن أعماله الأدبية : كتاب «الشعر في المعركة » الذي صدر الجزء الأول منه عام ١٩٥٧، والجزء الثاني عام ١٩٦٧ ، له عدد من الدراسات الأدبية والمقالات والقصائد التي نشرت في العديد من الدوريات العربية مثل: السياسة الأسبوعية، أبوللو، النهضة الفكرية، الرسالة، الهلال، المصور، الإذاعة، الأقلام العراقية، البيان الكويتية، الرسالة الجديدة، الأدباء العرب، الوعي الإسلامي الكويتية، المسلمون، الأديب اللبنانية، مجلة المجلة، مجلة الشعر- مع الإشراف على تحريرها. وفي الصحف مثل: الأهرام، البلاغ، المصري، الدستور، الأخبار، الجمهورية.

(٣) هي قصيدة مأتم الطبيعة ومطلعها : أطرق الطير على هام الغصون ، ديوان نهر الحقيقة ج ٤ صـ ١٨٣٩ .

تشكّل وجدانه بكل صور الطبيعة الجميلة التي شاهدها في قريته النخيلة وبكل أحزان الفلاحين البسطاء ومعاناتهم ، أولئك الذين نشأ بينهم وعاشرهم وتأثّر بهم ، من عويل السواقي وهي تذرف حسرة الإنسان لتراب الكوخ ! من إطراق الوجوه الطيبة التي طحنت إباءها مسيرة الظلم على أيامها الصابرة وجرعتها غفلة الرق وطمأنينة الهوان ، وقناعة الحرمان ، فتشرّب كل هذه الصور التي عكسها في شعره طوال حياته . (١)

نشأ في القرية ، فكان إحساسه بالفلاح عميقاً مرهفاً ، ووعي قضية الفلاح بالدرجة الأولى ، وحمل تراثه فوق ظهره و أرضه بين أحاسيسه و لم يستسلم أمام الاستعمار . بل شارك في قضايا مجتمعه ، و عانى من فساد السياسة وتأزم الاقتصاد ، واضطهاد الحرية ، مما كان نتيجة مباشرة لتعدد العدوان على الدستور ، و تكرر إغلاق البرلمان ، و تآمر قوى الشر على كل ما حققه الشعب من مكاسب بثورة ١٩١٩م و كانت الملكية الباغية و الاستعمار الطاغي الإقطاع المستغل أهم أطراف التآمر الذي وصل إلى ذروته في عهد " إسماعيل صدقي" ١٩٣٠م (٢)

كان يكافح ضد التسلط و الاستبداد ، ثم اتسعت دائرة العلاقة بين الشاعر والإنسان في مجتمعه و تطور مفهوم المجتمع لديه ، حتى يحق لنا أن نقول إنه من أنصار مذهب " الفن للمجتمع " الذي يجعل للأدب غاية لا بد من تحقيقها

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل مقدمة ديوان أغاني الكوخ صـ ١١ .
(٢) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل د. مصطفى السعدني: صـ ٢٠ .

إذ الإنسان مدني بطبعه لا يمكنه أن يعيش بمعزل عن مجتمعه ، رافضا أن يكون الأدب مجردا من أية غاية يسعى لتحقيقها، وأن يكون الشيء علة لنفسه[1]

وفاته

في الخامس والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٧٧ غادر الشاعر" محمود حسن إسماعيل" دنيانا ، ونقل جثمانه من الكويت إلى القاهرة ، وفي السابع والعشرين من نفس الشهر، شيع عشاق الشعر والأدب جنازته ، فشيعوا حين شيعوه ، عالَما من الأدب الرفيع ، وترك لنا حين رحل فنا شعريا زاخرا بكل معاني الحياة وبكل نبضة من نبضات القرية بدقائقها وتفاصيلها وكل ومضة من أمل الإنسان المصري والعربي ٠

ثانيا : تجربته ٠

يعد تعريف التجربة الشعرية من التعريفات العسيرة ؛ ذلك لأنها شيء يعانيه الشاعر أو الأديب في دخيلة نفسه ، يصعب فيها على الناقد الذي يقف خارج دائرة الإبداع أن يحدد ماهية هذه العملية[2] ومن هذا المنطلق تختلف من شخص لآخر ، وتتفاوت حدتها ودرجتها وتأثيرها فيما بين الشعراء ٠

(١) ينظر دروس في تاريخ آداب اللغة العربية ط ١ مطبعة دار السلام ببغداد ١٩٢٨ ٠

(٢) فسرت التجربة الشعرية تفسيرات ميتافيزيقية بالاستناد إلى الإلهام تارة ، وإلى العبقرية تارة ثانية ، وإلى شياطين الشعر تارة ثالثة ، كما اتصلت فكرة الإلهام القديمة بفكرة العبقرية الحديثة اتصالا وثيقا ، كما وصف الشاعر بالجنون في محاولة لتفسير قدراته الخلاقة التي خيل إلى كثيرين أنها لا يمكن أن تكون قدرة إنساني بشري ، ينظر التفسير النفسي للأدب د\ عز الدين إسماعيل صـ ٢٧ دار العودة بيرة د \ ت

ولذا عرفها الدكتور "محمد غنيمي هلال" بقوله هي الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه ، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني لا إلى مهارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق ، أو يجاري شعور الآخرين لينال رضاهم " [١]

وقد شاع استعمال مصطلح التجربة الشعرية حديثا في كتابات الشعراء والنقاد على حد سواء وذلك لمحاولة تفسير هذه الانفعالية الإنسانية ورصد جوانبها وأبعادها المختلفة ، وتطلع الشعراء للكشف عن خبرتهم الجمالية وسيرتهم الفنية . [٢]

إذ الفنان بما يملك من موهبة وموروث إنساني وثقافي وحساسية تمنحه القدرة على النفاذ على باطن الأشياء ، وإعادة صياغتها وفق علاقات جديدة على
ضوء رؤيته للإنسان والكون يستطيع تجاوز الواقع دائما لبناء الحلم الإنساني الذي يتمثل فيه العدالة والمساواة والتبشير بعالم أجمل [٣]

(١) النقد الأدبي الحديث د \ محمد غنيمي هلال صـ٣٣٦ دار العودة بيروت لبنان ١٩٨٧ م

(٢) ينظر تعالق التجربتين الشعرية والصوفية لدى صلاح عبد الصبور الأستاذ علي مصطفى عشا صـ ١٩٥ مجلة جامعة دمشق المجلد الأول ٢٠٠٩ م

(٣) ينظر تعالق التجربتين الشعرية والصوفية لدى صلاح عبد الصبور الأستاذ \ علي مصطفى عشا صـ ١٩٥ .

و بشيء من الإيجاز والتركيز يمكن أن نقول: إنها معايشة كاملة في خاطر المبدع لإحساس معين بدءا بالملاحظة إلى أن يخلق فنيا في شكله النهائي من خلال إطار فني ٠

إذ من البديهي ، أن معايشة إحساس معين لا تعد تجربة شعرية إلا إذا تحققت فعليا في عمل فني ؛ لأن الأدب نشاط إبداعي يتشكل في شكل لغوي ومعنى هذا أن تجربة إنسانية لأديب مبدع تأخذ طريقها إلى الآخرين عن طريق الشكل اللغوي الذي تتشكل فيه مما يجعل منها كيانا محسوسا جماليا [١]٠

والشاعر لا بد " أن يعاني في تجربته من حين تخلقها في قلبه إلى حين اكتمالها ، يعاني في معانيها ، وفي لغتها ، وفي صورها ، وفي إيقاعاتها ، يدفعه إلى ذلك انفعال مبهم إزاء حقيقة من حقائق النفس أو حقائق الوجود ويأخذ هذا الانفعال في التخلق والتولد عن طريق ما يحرك فيه من أحاسيس ويثير من أفكار وعواطف ، وينقل إلينا ذلك في كلمات موسيقية لها دلالاتها المختلفة " [٢]

والتجربة الشعرية هي تجربة لشاعر على صلة بالحقائق الكونية التي تتقوم بها تجربته ، كما أن مركزها هو الشاعر، والعلاقة غير المرئية بين الشاعر والعالم – أي الخفية – هي عنصر جوهري في هذه التجربة ، إنها بمثابة الخط الناظم لذات الشاعر وعالمه ٠

(١) ينظر قراءة الشعر د \ محمود الربيعي صـ ١١٩ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٧ م

(٢) في النقد الأدبي د \ شوقي ضيف ص ١٤٣ دار المعارف ط ٦ \ ١٩٨١ م

وهي إفضاء بذات النفس بالحقيقة كما هي خواطر الشاعر وتفكيره في إخلاص يشبه إخلاص الصوفي لعقيدته ويتطلب هذا تركيز قواه وانتباهه في تجربته ٠

وعليه فالتجربة الشعرية ليست عملا سهلا بل هي عمل صعب لأنها خلق وإيجاد لحدث شعري وجداني ، حدث يتدرج فيه الشاعر خطوة خطوة ، بحيث إذا انتهى منها شعر بأنه نهض بعمل جديد كامل ، لم تتنازعه فيه أعمال أخرى ، ولا عاقته دون تمامه عقبات أو عثرات [١]

ولا شك في أن للواقع المعاش تأثيرا على صدق التجربة أو كذبها، فكلما كان المؤثر قويا ومؤثرا في نفسية الأديب ، وانفعل به وتفاعل معه كانت التجربة عميقة وأصيلة ، والتجربة الشعرية العميقة هي التي تصدر عن ذلك التوحد الحي بين ما تعانيه النفس في الداخل ، وما تبصره في الخارج والشاعر الواحد قد تتعدد وتتباين مواقفه ؛ لأنه يصدر عن إدراك وجداني يتقلب بين لحظات نفسية يبلغ اختلافها حد التناقض أحيانا ، وكل ذلك يعرف من خلال موضوعية العمل الأدبي ومن حيث الأسلوب والألفاظ والصيغ والأفكار والموسيقى والصور وما إلى غير ذلك ٠ [٢]

ثالثا :مؤثرات في أبعاد تجربته

(١) ينظر في النقد الأدبي د \ شوقي ضيف ط ٦ صـ ١٣٨، ١٤٣ ٠

(٢) ينظر الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د \ عبد القادر القط ط٢ صـ ٢٧١ دار النهضة العربية بيروت لبنان ١٩٨١ م ٠

النشأة :

تلك النشأة التي يقول هو عنها نشأت و لم أولد في بيت علم و لم أواجه في طفولتي مكتبة تشكل ثقافة مبكرة تعين على أي معرفة ، و أول ما سمعت من اللغة العربية لغة القرآن ، و أول ما سمعت من الشعر الأنغام الجنائزية التي كان يتصايح بها المنشدون أمام النعوش ، و كنت أضيق بها ، و لهذا هربت إلى معيشة كاملة في الحقل ، حيث سمعت من أنغام الطبيعة لغة الطيور التي كانت أول إيقاع موسيقي لم تتدخل فيه صنعة الإنسان يحرك نفسي إلى الإصغاء لعالم الطبيعة بكل ما فيه .

و لم أكن في معظم الوقت مع أهلي في " الكوخ " بل كنت أعيش في " الغيط " على مشارف نهر النيل جنوب "أبوتيج " و قد طال مقامي كجزء من الطبيعة ، أبذر الحب و أتابع البذرة منذ غرسها حتى الحصاد ، و لا أزال أذكر الغناء البشري الذائب من حناجر الكادحين في مراسم الزرع و الحصاد و كانت كل هذه العوالم أشبه بمرجل انصهرت في داخله كل العناصر الترابية التي انفصلت عنها بإضاءة الشعر عندما بدأت أتنفس به عقب فراقي لعالم القرية و الطبيعة إلى عالم المدينة " [1]

(١) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل : الدكتور مصطفي السعدني ص١٧و١ محمود حسن إسماعيل : سلوان محمود و عزت سعد الدين صـ ٢٠ .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن شاعرنا ظاهرة فنية فريدة ، إذ هو رجل صنعته الطبيعة ، وشاركت في صنعة لغة الطير والزهر والنور والهواء .

البيئة

تكشف الدراسات الأدبية عن الأدباء في صعيد مصر عن سمات خاصة تمنحنا عند مطالعة نتاجها الأدبي خصيصا مميزا، يجعلنا نجزم بأن لصعيد مصر خصوصية مختلفة في تشكيله الأدبي، أكسبها ذلك التميز خصب الأرض التي سمحت لماء النيل العذب أن يسبر أغوارها، كما كان للسليقة دور في التكوين السيكولوجي لأدباء الصعيد، و "محمود حسن إسماعيل" مثال لهذه الخصوصية التي تميز بها أدباء جنوب مصر، فتغنى بحب الطبيعة وهام بالنهر الخالد ، وجسد عشق الحرية والانطلاق ، فصار واحدا من نماذج الرومانسية الصادقة ، وكانت تجلياتها في دواوينه وأعماله.

كان ابن الطبيعة الوفي البار ، تناول الكثير والكثير من مظاهرها حتى ليحق لقارئ ديوانه "أغاني الكوخ" أن يسميه الريف المصري في شعر "محمود حسن إسماعيل" ، وقد صدرت معظم هذه التجارب التي تناولها عن أم واحدة هي الأرض[1] وهو يرى فيها الأم الحانية الرءوم

(١) لأحمد زكي أبي شادي رائد جماعة أبولو قصيدة شهيرة بعنوان "أمنا الأرض " ينظر جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د/ عبد العزيز الدسوقي صـ ٤٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩١ هـ ١٩٧١ .

التي تصل أرحامها وأبناءها تطعم منهم الجائع ، وتسقي منهم العطشى ، وتستر منهم الموتى ، فقال :- [1]

الأرض أم رءوم ما جفت ولدا ... ولا تقطع من أرحامها سبب

تقيت جائعها حيا وتشربه ... وما تضن بستر الهالك الترب

فما لهم مزقوا أوصالها طمعا ... وناهشوا الوحش في الآجام واحتربوا

الطبع والأخلاق:

إن معرفة أخلاق الشاعر وطباعه يسهم بقدر كبير في تحليل وكشف حقيقة العوامل التي تتوالد وتتدافع وراء ما يسفر وينجلي من معان واضحة في القصيدة ، وعليه يجب الإحاطة بطباع الشاعر ؛ لأن الطبع هو الذي يؤدي إلى تنازع الشاعر مع المؤثرات الخارجية ، فيحفزه إلى الإبداع الأدبي ، ويساعد على إنماء تجربته ، وهو في الوقت ذاته الشرارة التي تبعث الشاعر على البوح بخلجات نفسه ، فيبلورها في قصائد شعرية.

وشاعرنا "محمود حسن إسماعيل" كان عالما من الأدب الإنساني الرفيع وروحا إنسانيا شفافا ، يقطر الحب والصدق من مداد حروفه ، تتجلى فيه عزة المصري الأصيل ، وشموخ الريفي الحر الأبي ، وهو في شموخه ابن الريف والنيل ، وابن مصر التي اختارت أن يمثلها أبو

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان نار وأصفاد صـ ٨٩٧

"الهول "في شموخه وكبريائه ويعد شاعرنا ندا "للعقاد "في هذا الكبرياء الذي لا يذل أبدا ، عاش مع أحداث وطنه ، وآلام نفسه متفائلا فغنى للحرية ، والثورة والأمل طيلة حياته .[1]

عانق الريف المصري الذي أحبه وهام به وغنى له ، وعايش الحقل ، حيث سمع من أنغام الطبيعة لغة الطيور التي كانت أول إيقاع موسيقي لم تتدخل فيه صنعة ، وكان صوفي المزاج نشأة ووراثة وتأثيرا ، وليس عجيبا أيضا أن يكون صوفي الكلمة والنغمة ، يصدر عن ألم دفين وزهد ، وجد فيه ،وفرض عليه وأملته على نفسه السامية دواع من ماضيه النقي ، وحاضره المزدحم بالمتناقضات، وآماله التي اصطدمت بصخور الزيف والباطل وخلل الموازين [2]

الوجدان الخاص للشاعر.

هذا الوجدان الذي شكله حب الطبيعة الجميلة ، التي شاهدها في قريته النخيلة ، والتأمل فيها وحبه للعزلة ، كذلك الحزن المصري العريق الضارب في أعماق الريف المصري منذ آلاف السنين ، والذي سمع من صوت الساقية عويلها وهي تذرف حسرة الإنسان لتراب الأرض ، من إطراق الوجوه الطيبة التي طحنت إباءها مسيرة الظلم على أيامها

(١) ينظرا لأدب العربي الحديث د \ محمد عبد المنعم خفاجي ج ٢ صـ ١٧٢

(٢) ينظر الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل المقدمة

الصابرة ، من الضجر القانت الذي أخنى على كاهل الفلاح بألفة الفقر والقهر وقناعة الحرمان .

ومن ثم كان "محمود حسن إسماعيل" متفردا في وجدانه ، متفردا في إحساسه ، فكان قليل الأصدقاء و قد تشكل وجدانه بكل صور الطبيعة الجميلة التي شاهدها في قريته و بكل أحزان الفلاحين البسطاء ومعاناتهم، أولئك الذين نشأ بينهم و عاشرهم و تأثر بهم فتشرب كل هذه الصور التي عكسها في شعره طوال حياته كما تقول ابنته "سلوان" : سمعت منه عن الناي الذي أطربه والأرغول الذي أحزنه ، وجسد له حزن قريته في صباه ، يشق أبناؤها الأرض يذرون الحب ويأخذون الفتات ، وسمعت منه عن النيل والتأمل العظيم في رحابه والإحساس بالصفاء أمام عظمته ، سمعت عن الحقل والسنبلة عن الشجرة والزهرة عن الفراشة والغراب ، عن القمح وزهرة القطن وهز الريح لعطاء الأرض ، والحصاد كله للقصر المنيف .[1]

(1) ينظر الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل مقدمة ديوان أغاني الكوخ ، ومحمود حسن إسماعيل :سلوان محمود ، وعزت سعد الدين، ص ٢٢

المبحث الثاني

أبعاد التجربة الشعرية

تدور التجربة الشعرية عند "محمود حسن إسماعيل" حول أبعاد أساسية تعد محاور رئيسية في شعره ، ومن هذه الأبعاد ما يلي :-

أولا البعد الاجتماعي

ونعني به إدراك الشاعر لحقيقة تجربته ونقلها من حدود نفسه الضيقة إلى حدود مجتمعه الذي يحيا في كنفه ، مما يعد انعكاسا لذاته في المجتمع بقدر ما هي انعكاس للمجتمع في ذاته .

وفيه ينفذ الشاعر بحدثه وتجربته إلى أعماق قضايا العصر للتعبير عن واقع الحياة ، وما فوق هذا الوقع ، وما دونه متجها إلى نقد عيوب المجتمع وتسليط الضوء عليها وإبرازها [1]

ولما كان "محمود حسن إسماعيل" ابنا من أبناء الريف كانت قضية الدفاع عن الفلاح والمغبونين من أبناء الشعب هي قضيته الأولى .

أولا: قضية الفلاح

كانت لنشأة "محمود حسن إسماعيل" بالنخيلة " إحدى قرى " أسيوط" والواقع المرير الذي عاش فيه مع والده ذلك الفلاح البسيط وما قاساه من حرمان في مجتمع متفاوت الطبقات – يستأثر المستعمر بخيراته -

(1) ينظر مطارحات في فن القول د\ محي الدين صبحي ط٣ صـ٧٣ دار العودة بيروت لبنان ١٩٦٩م .

كان كل ذلك كفيلا بتحديد الإطار الاجتماعي لديه ، وبلورة انتمائه لطبقة الفلاحين الكادحين ، الذين تبدد عرقهم ، وأهدرت دماؤهم بين طبقة الملاك أصحاب رؤوس الأموال والمستعمر الدخيل ، وقد أصبحوا آلة مسخرة تنتج ولا تستهلك ، تغني غيرها وتفتقر ، تكسو غيرها وتتعرى ، تشبع الآخرين وتتضور جوعا ، تروي الطغاة وتموت ظمأ [١] .

من هنا كانت قضية الفلاح هي قضيته التي دافع عنها ، واستمر نضاله من أجلها ، وجعلها محورا لحديثه ، وخصص لها ديوانا بكامله هو باكورة أعماله ديوان " أغاني الكوخ " [٢] فضلا عن غيره من الأعمال الأخرى ، يتحدث فيه عن الفلاح وطبيعة حياته القائمة على الظلم والقهر، فيقول من قصيدته " الكوخ " :- [٣]

بعثر عليبه الدمع ما صفقت في قلبك الألحان يـــا شاعر
واحرق لـه الأجفان ما مسها برح الضنى والحزن يا ساهر
عِّرج عليـــه ساعـة واتخذ في ظلـــــه مــأواك يـــا عابر
وطف حوالي ركنه والتمس نور الهدى والرشد يـــا حائر
هنا خبـــايا النفس مطمورة غشَّى عليها الزمن الجـــائر
لو (لابن سينا) خطرة بينها ما قال : نفسي لغزها قـــاهر

(١) ينظر غايات الأدب في مجتمعنا المعاصر د \ محمود علي السمان ج ٢ صـ ١٣٩ طبع الجهاز المركزي للكتب الجامعية والوسائل التعليمية ١٩٨١ م

(٢) كان ديوان أغاني الكوخ هو أول دواوين الشاعر ، وقد صدر سنة ١٩٣٥ م

(٣) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ ج ١ صـ ١٥ ، ٢١

وفيها يقول وقد شاركه جانبا من مأساته :- [1]

شهدته يذرو دخان الأسى والوجد من كانونه ساعر

تبكي سواقي الحقل أشجانه وما بكـــاه مرة شاعر!

وفي أمسية من أمسيات قريته الحزينة كانت تحتضن الشاعر في قريته "النخيلة" أحزان ومواجع طافت بها نفسه على فلاحي قريته ، فأخذ يردد هذه الأنغام الشجية في وقت الغروب ، فقال من قصيدته " نبي جائع " يقصد به هذا الفلاح :- [2]

نبي في الضحى سار يولول في الربى وحده

ويحكي للتراب حكايـــة أسرارهـــا عنـــده

سألت عليه من ناحوا على خطواته الحيرى

فقالوا : من قديـــــم الدهر لا ندري له أمرا

شقي ، جائع ، عار ، ذليل الوجـــه مصفر

ويضرب كفه في الأرض مـن ألم فيـخضر

وبين يديه بلهاء الحديد جثا لهـا لـــه القدر

إذا لمست حجاب الترب أينع تحتـها الحجر

أفق يا خالـق الفردوس تلك جنايـــة الفأس

أعبـد أم نبي أنت مغبـــون مـن النـاس ؟

---

(١) السابق صـ ٢١

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أين المفر صـ ٨١٥

ويطلب الشاعر إلى من حوله من أبناء وطنه أن ينظروا بعين العدل والإنصاف لهذا الجائع العاري الذي شقيت بشقائه آلة الحديد في يده ، فقال:- (١)

قف في سماء النيل وأصغ إلى محيرين سروا في الحقل وانتشروا

قوم هم الدمع والآهات تحملها أنقاض عظم لهم من خطوها نذر

كادت مناجلهم والله مشربها بأس الحديد من البأساء تنصهر

جاسوا الحقول مساكينا جلابيبهم توراة بؤس عليها تقرأ العبر

يجنون أيامهم ضنكا ومسغبة مما أفاء لهم واديهم النضر

ساءلت سنبلهم ما سر شقوتهم ومن غبار يديهم مرجك العطر

فمال واسترجعت عيدانه نغما يلغو من الموت في أصدائه سمر

وإذا بها من تراب الحقل نائمة تحكي توابيت لم توجد لها حفر

بكى الحصيد على أحزان غارسه متى سيحصد هذا الدمع يا قمر

ثانيا :شقاؤه

آمن الشاعر بحق الفلاح في حياة حرة كريمة سلبها الإقطاع منه ليعيش أشد فقرا وإذلالا ، ويعيش الإقطاعيون أكثر غنى ورفاهية ، فيحدثننا عن المظاليم من بني الفأس ، فيقول :- (١)

(١) السابق صـ ٧٣٨

والمظاليم من بني الفـــأس طواهم في أسره من طواه
عبدوا الأرض من قديم وغنت بهم الطير والربـا والمياه
وهم ضائعون في كل حـــقل موكب للهوان يخزي رباه
ضرب الرق في الفضـاء فلم يبق نصيبا لكائن في حماه
غير طـــاغ وظـــالم مستبد ورث الظـلم جـــده وأباه
حسب الأرض ملكه وعبـــــاد الله رقـا لكـأسـه وهـواه

أجل ما أشقى هذا الفلاح وما أشد بؤسه وهوانه ، و ما أبشع ظلم هذا الإقطاعي للفلاحين هذا الإقطاعي الذي :- (٢)

يغرس النـاس وهـو يجنـي ويمضون فيمتص كل خير حشاه
وينامون في الحظائر عارين وتشقى من الفـراغ ذراه
وينادى عليهم فيرى الرحمة ألا يجـاب حتـى نداه
وإذا كلبه تأذى من التخـمة ضجـت حيـاته لأذاه

وفي قصيدته " وطن الفأس " ينشد أغنية الحفاة لهذا الفلاح الذين أدمى الحفاء قدميه ، وبرح الشقاء بأيامه ، فيخبرنا عن أهوال هذا البائس الشقي الذي يراه العابر من أقصى الوادي لأدناه منحني القامة ، مكبا على الأرض يغرس فيها الحب ، ويرعى فيها النبت ، ويحصد اليابس

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ ٤٥ .
(٢) السابق صـ ٤٥

الذي استوي على سوقه ، لا لنفسه أو بنيه ، وإنما لغير غارسه ، ولولاه ما أمرع وادي النيل ولا زكا نبته ، فيقول :- [1]

جنَّة نضْرة الخمائل في الريـــــــف نَماها مُعذَّبٌ في حيـــــاته
ناسكٌ في الحقول، هَيْمانُ بـــــالأرْ ض يُجلِّي بتربها دعـــــواته
حملَتْ فأسُه من الغيب سـرّاً حيَّر العقل كامنٌ من صفـاته
حَطَبٌ يابسٌ يمرُّ على الصخـــــــــرِ فتزهو الورودُ في جَنَباته
رَصَدٌ في الحديد، لو أنَّ "هـــــارو تَ" رقَاه لضلَّ في قسمـــــاته
حكمةٌ تبهرُ النُّهَى حطَّمَ العلْـــــــمُ لديها العظيمَ من معجزاته
لو رنا الملْحد العنيد إليهـا وهو جمُّ الضلال من نَزَغـاته
رجَمت غَيَّه وكـــــــادت جلالاً تسكب الرشدَ والهدى من لهاته

هكذا رأى الفلاح بائسا محروما يئن من الظلم الواقع عليه ، ويشكو من كرامته المهدرة ، وإنسانيته المغصوبة .

٣- شركاء البؤس والشقاء

أ- زهرة القطن :

ويقيم الشاعر زهرة القطن مثلا لبؤسه وشقائه تلك الزهرة التي كانت في أول أمرها مجرد بذرة ، ولكنها بعد ذلك تجهده ، وتستنفذ كل طاقته ممهدا لها الأرض زارعا وساقيا من أجل إنمائها ، واضعا كل آماله التي تشكل خروجه من دائرة الفقر عليها ، لكنه يصدم في نهاية الأمر-

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان هكذا اغني صـ ٣٩٥

وبعد عناء كبير - بضياع المحصول وعائده من يده إلى أيدي أصحاب القصور الفارهة متغافلين عن حياته متناسين ما هو فيه من بؤس وشقاء ، فيقول من قصيدته كنز الذهب الأبيض ، بادئا بوصف تلك الزهرة التي يشرق لها وجهه عند رؤيته لها :- [1]

حين ذاب الطل من كاساتها لؤلؤا يجري على كف الشعاع
لثمت خد الضحى وابتسمت كابتسام الطفل في عهد الرضاع
وبدت صفراء تحكي غادة ذبلت نضرتها يوم الوداع

ولكن سرعان ما يضيع الأمل ، وتتبدد الأماني ، وتنطفئ الفرحة في قلب صانعها :- [2]

ذاك تاج النيل فاندب عنده أمل الفلاح والحلم المضاع
وارث للمسكين عيشا أسودا ران في كوخ حقير متداع
نامت النعمة عنده وجفت معدما لم يرعه في مصر راع
عفرت ريح الأسى كسرته وطوت نعماءه دنيا الصراع
رقص القصر على أكتافه وهو جاث بين ذل واقتناع
وسطا البؤس عليه فغدا زورقا في اليم محطوم الشراع

ب- الساقية والثور :

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ ٢٣
(٢) السابق صـ ٢٦ .

ولم تكن زهرة القطن وحدها من النباتات أو الزروع هي الشكل الوحيد الذي استوعب آلام الشاعر نحو الفلاح وشقائه عن طريق الإسقاط ، بل كانت هناك وسائل أخرى كالساقية ، والثور، إذ استطاع الشاعر أن يربط بين أنين الساقية وقهر الفلاح وإذلاله ، فيقول من قصيدته " القيثارة الحزينة " :- [1]

لها عيون دائمات البـــــكا بمدمع كالســـيل في رفده
تفنى دموع الناس من فيضها ودمعـــها باق على عهده
ويزدهي الزهر إذا ما جــرى منهلها الصــافي على خده
يفتر إن ناحـــــت ويذوى إذا لم تسكب الدمع على مهده

وفي موطن آخر يجعل هذه الساقية ندابة تتفجع على ثورها الراسف في امتهان القيد مقيما على الذل ، فيقول :- [2]

وندابة تحت ظل الكــروم على الذل يشكو إسار القيود
تضج على دائر كالــرحى يذوق من الســوط ذل العبيد
مضيعة النوح كم أرسلت شجاهـا يئن أنين الشــرود

فالساقية الندابة تجسيد حي لآلام القهر الرهيبة ، أمام الفعل اللا إنساني وهي ندابة يضيع نواحها في الفضاء ، ويشكو ثورها ذل القيد في استعباد لا يملك من خلاله سوى الشكوى ٠

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣
(٢) السابق صـ٣١

وإذا كان الشاعر قد جعل من بكاء الساقية رمزا لأنين الفلاح ، فإنه يجعل من الثور المغمض العينين الذي يدور والنير على كتفيه ، والسوط يلهب جسده رمزا لهذا الفلاح الكادح المعذب الذي أغمض الجهل عينه ، وأثقل الذل كاهله تماما كهذا الثور الذي تنوح عليه الساقية ، أو تنوح عليه نفس الشاعر [1] فيقول :- [2]

لها عيون دائمات البكا بمدمع كالسيل في رفده

دءوبة الشكوى على راسف في الذل مفجوع على جده

دارت به البلوى فما راعه إلا عماه غال من رشده

أعمى رماه البين في دارة لم يدر نحس الخطو من سعده

شدت حبال الذل في رأسه وفت صرف الدهر في كبده

والسائق الأبله لا ينثني عن ضربه العاتي وعن كيده

لقد اكتمل مشهد الظلم في الأبيات السابقة بظهور أبعاده الثلاثة ، الساقية دءوبة الشكوى والثور الراسف في الذل ، وحبال القهر في رأسه ،

(١) ينظر تطور الأدب الحديث في مصر د \ أحمد هيكل صـ ٣٢٣ ط ٦ دار المعارف ١٩٤١ م

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ ص٦٢ ، ٦٣

والسائق الأبله الذي لا يكف عن ضربه العاتي ، وكيده المستمر كأنه الآمر الناهي ، أو المتصرف في أقدار الخلائق [١].

وإحساس الشاعر بالثور هنا هو إحساس بالإنسان المتألم الشقي ، فالثور رمز للإنسان فيما يعاني ، الثور مسخر والقيد يلازمه ، وهو نفس الإنسان غير قادر على الرفض و لا يستطيع أن يجهر بمكنون صدره ، أو يعلن التمرد على واقعه ، وأنين الساقية معادل حسي ورمز واقعي لأحزان الطبيعة على الفلاح [٢]

ج- القرية :

ولم تكن القرية بمعزل عن مشاركة الفلاح في بؤسه وشقائه بل كانت الشاهد الحق على أوجاعه ، والناطق الأمين بكل آلامه ، يلفها الصمت ، ويحتويها الهدوء ، وتسكن في هجوع على ضوء القمر ، إلا أنها تأبى إلا أن تبوح بأسرارها يوما ما ، إذا ما قيض الله لها من أبنائها من يفض حجب هذه الأسرار ، فيطلب إليها الشاعر أن تصيخ لشكواه وتسمع لبلواه فيما فجع به من هموم أبناء قريته من الفلاحين ، ومن آلامهم وأوجاعهم ، فيقول :- [٣]

إيه يا قريتي أصيخي لشاد سكب اللحن في رنين شجي

(١) ينظر التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل د \ مصطفى السعدني صـ ٣٥
(٢) السابق صـ ٣٥ .
(٣) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ ص٥١ ، ٥٧

شاعر هزه هـواك فغنى لك أنشـودة الجمال البهي

مد أوتـاره أشعـة بدر غارقات في صمتك السرمدي

* * *

من ثـراك العـزيز غـذت جنى الروض فأغـرى لقطفه كل حي

وارتوى نبتها من العـرق الهامي على تربـك الطهـور الـزكي

رضـخت للسـراة من كل فظ عبد المـال في طمـاع زري

أنت أسعـدته وأشقيت أرواحا تهـاوين في حمـاك الشـقي

إن الشاعر هنا وكأنه يعاتب قريته على خيرها الوفير ، الذي أغرى الجشعين ، وأسال لعاب عبدة المال ، ولولا هذا الخير ما امتدت إليها يد الجائرين ٠

كما كانت هناك مظاهر أخرى شاركت الشاعر أبعاد تجربته الوجدانية في التعبير عن واقع المجتمع ، من هذه الأشياء ، سنبلة القمح [١] وزهرة الفول[٢] والفراشة[٣] وغيرها من هذه الأشياء التي شاركته مأساة حياته تجاه فلاح قريته ٠

(١) السابق صـ ٧٣
(٢) السابق صـ ٧٧
(٣) السابق صـ ١٦١

ثانيا البعد الوطني

الوطنية هي حب الوطن والشعور نحوه بارتباط روحي وهي نزعة اجتماعية تربط الفرد بالجماعة ، وتجعله يعمل من أجلها ، ويضحي في سبيلها [١]

وحب الوطن والشعور نحوه بالارتباط الروحي يفرض على الشاعر أن يعبر عن آلام وآمال أمته ، وإلا فليس بشاعر من لا يستطيع أن يرى في مجتمعه أو عالمه إلا المظاهر الخارجية ، ومثله من يبصر الحقيقة ولكنه لا يفصح عنها ، بل ويلجأ إلى الزيف والخداع لتحقيق مغنم أو يركب موجة الإبهار ليلفت إليه الأنظار وإنما الشاعر هو الذي يدرك الحقيقة ويجاهر بها في لغة فنية آسرة [٢]

والذي لا شك فيه أن التجربة الشعرية في مجال الوطنية هي دليل طهارة النفس وسمو الروح ، والشعر الوطني الصادق لا تنكر قيمته في إصلاح الشعوب وذلك بما يغرسه في نفوسها من العواطف السامية ، والأخلاق النبيلة ، إذ يهيب بها أن تتمسك بالحرية والكرامة ، ويستحثها

(١) ينظر النقد التطبيقي والموازنات د \ محمد الصادق عفيفي صـ ٦٨

(٢) رؤية جديدة لشعرنا القديم د \ حسن فتح الباب صـ ٢٦٢ ط ١١ دار الحداثة بيروت ١٩٨٤ م

على النفور من العبودية والذل ، ويحبب إليها الثورة على الطغاة ، فيقول من قصيدته نفخة الصور:- [1]

نفخ الصور فانتبه من سباتك أيها الشعب تلك أولى حياتك

لن تذوق الحياة حرا إذا لم تسقها ما تريد من تضحياتك

فامض للغاصبين بالنار والآجال واضمم لهم زئير حُداتك

وإذا رفرفت نعوش الضحايا كل يوم فأطربت ثاكلاتك

فهي للبعث صيحة وأذان أيها الشعب تلك أولى حياتك

و في قصيدته (أنا الشرق) يعبر عن معاناة شعبه في معركة التحرير التي تأجج لهيبها في سماء (بور سعيد) الخالدة حين هب الشرق العربي كله مع مصر في نضالها الخالد ضد الغزاة ، لصد العدوان الثلاثي عليها ، فيقول :- [2]

أنا الحر يدري كل حر مواقفي ويشهد لي التاريخ في كل صفحة

أنا العزة الكبرى أنا الشرق فليعد إليَّ كياني بعد طول التفتت

وترجع راياتي كما قد رفعتها وسدت بها الأيام من كل قمة

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل المجلد الثاني ديوان نار وأصفاد صـ ٩٦٧

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل المجلد الثاني ديوان نار وأصفاد صـ ١٠٢١، ١٠٢٢

وحطين تدري كيف بأسي وقوتي وكيف "صلاح الدين" هز شكيمتي[1]

وقادش للأجيال تروي حديثها وتسكب في سمع الزمان بطولتي[2]

فقل للطغاة المعتدين على الحمى لمصر فداء العمر من كل مهجة

فالشاعر يعبر هنا عن معاناة شعبه حيال هذا العدوان الغاشم ، ويدعو ه إلى الكفاح ، ويبث فيه روح الحرية والعزة ، ويذكره بماضيه التليد ، من خلال مواقعه التي سطرها التاريخ وأبطاله الذين حفروا أسماءهم بمداد من النور في صفحات تاريخنا المجيد ،ويتجلى البعد الوطني في نواح عدة منها : الناحية السياسية ٠

(١) حطين : معركة فاصلة بين الصليبيين وقوات صلاح الدين المسلمة، وقعت في يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ بالقرب من قرية المجاودة، بين الناصرة وطبرية انتصر فيها المسلمون

(٢) قادش : معركة بين قوات الملك رمسيس الثاني ملك مصر والحيثيين بقيادة الملك مواتللي الثاني بمدينة قادش التي تقع على نهر العاصي في سورية حوالي العام ١٢٧٤ ق.م علي وجه التقريب٠

البعد الوطني وواقع الأمة

ولم تقف تجربة الشاعر عند حدود وطنه " مصر "بل تعدتها إلى أمته العربية فاتخذ من كفاح الشعب في المغرب العربي المناضل ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم منطلقا يدعو من خلاله شعبه إلى الاتحاد ؛لأن الوحدة طريق النجاة ، و التفرق سبيل الفشل ، ولذا يستنكر على المصريين خلافهم في عيد الأضحى الذي يحمل رمزاً قديماً له أبعاده الدينية ، و لأجل الاتحاد يدعو الشاعر شعبه للكفاح ضد الاستعمار ، فيقول :- (١)

لا تسل عنا و لا أين حمانا؟ وحّد القيد على الدرب خطانا!!
كلما حلت بنا أصفاده فجّرت للبعث صبحاً و أذانا (٢)
هذه الأيام تترى حولنا كلما زمّت بنا زادت قوانا (٣)
همة الأبطال و البأس الذي كان للأبطال خمراً و دنانا (٤)
ضاق أفق الشرق عن أعلامه فطوى الغرب و لم يغمد سنانا
لم يزل " طارق " في أجناده يخطب الدهر و يسقيه البيانا
ذاك أرض السين فاسأل نهرها كيف لبّاه سهولاً و جنانا (٥)

---

(١) الأعمال الكاملة لمحمود حسن إسماعيل ديوان نار وأصفاد صـ٩٥٣ .

---

(١)

(٢) الأصفاد : القيود قال تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد)

(٣) زمَّت : اشتدت .

(٤) الدنان : جمع دن ، والدن هو وعاء ضخم للخمر ونحوها .

(٥) هو نهر رئيسي في شمال فرنسا، وأحد طرق النقل المائية التجارية. كما أنه مصدر جذب سياحي، وبالذات في مدينة باريس .

و اسأل الحمراء عن تاريخـــها أو فدعها تتحـــدى الحـــــدثانا [١]

لقد كان الشعور بالمجتمع الذي تكونت ملامحه وسط هذه الظروف السياسية و الاقتصادية والنفسية والاجتماعية متبلورا في مفهومه الشامل عن الإنسان باعتباره الكائن الذي خلقت الطبيعة من أجله ، وعليه فلابد أن يمنح كل حقوقه المكفولة ، و أن الصراع بين الحرية و الرق أمر مشهود دائماً و لأجل هذا يجسم الشاعر أوضاعه السياسية ؛لأن الغاصب يمعن في كيده و الحزبية تفُتّ في وحدة النضال و الشعب يصلي سعير الاستبداد ، وجاء عيد التضحية و الفداء [٢] فيقول:- [٣]

قالوا :أتى العيد !قلت العيد أن تثبوا على القيود يدا في الهـــول جنب يد

و أنتم في خضـم لا ضفـــاف له من التنـــابذ و التفـــريق و اللدد

و بينكم غاصبٌ ، يرجي المـــحال و لا يرجى له بوفاء العـــهد أي غد

عاهدتموه و من يا قوم ضللكـــم ؟ عهـــد الذئاب زمـــان كاذب الأمد!

ذبيحة بخـــــــلافات يكـــاد لها حديد "داود" يلقي العهن في الزرد!

فأنقذوها بنور من تضـــافركـــم يدب فيـــها دبيب الروح في الجس

لقد أسهم بتجربته في أتون الثورة ، واختار طريقه عن وعي ومسئولية ؛ لأن مأساة أمته ووطنه جعلته يرفض أن يسير في درب غير دربها فهتف لها في كل قطر عربي ، ودعا لها في كل سبيل ، وأهدى صادق تجاربه لكل قطر ينافح من أجل استقلاله فقدم قصيدته "زهرة من عذاب " إلى سدرة النضال العربي

---

(١) قصر الحمراء هو قصر أثري وحصن شيده الملك الامازيغي باديس بن حبوس في مملكة غرناطة من القرن العاشر الميلادي. وهو من أهم المعالم السياحية بأسبانيا ويقع على بعد ٢٦٧ ميلاً (٤٣٠ كيلومتر) جنوب مدريد. تعود بداية تشييد قصر الحمراء إلى القرن الرابع الهجري .

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ، ديوان نار و أصفاد ، صـ ٩٥٥ .

(٣) السابق صـ ٩٥٥، ٩٥٦ .

المنيع في " الجزائر" العزلاء التي قهرت حديد الطغاة ، وحيرت بطش الاستعمار وكانت آية كبرى من آيات النضال العربي ، وقدمت من البطولة والفداء ما تشخص له الأبصار ، وتعجز عن وصفه الأقلام [١] وفي موكب الزحف العربي الظافر مع انتفاضة العراق المجيد قدم قصيدته " شعلة على دجلة"[٢]

وأهدى إلى " حلب الشهباء " مدينة الثائر العربي الحر (عبد الرحمن الكواكبي) القائل "إن الحرية هي شجرة الخلد ، وسقياها قطرات من الدم

المسفوح" أهداها في مهرجان العروبة في ذكراه قصيدته "عدو الاستعباد" (٣)

لقد سخر "الشاعر جزءا كبيرا من تجربته للعناية بأحداث الشرق وقضاياه الوطنية والإسلامية فله في فلسطين شعر كثير(٤) صور من خلاله جحيم المعارك التي خاضها المناضلون الأحرار من أبناء الشعب العربي العريق وعلى هذا النسق سخر الشاعر تجربته فلم يجعل من تجربته لحنا يتغنى فيه بحبه العاثر "كإبراهيم ناجي" الذي بالغ في التعبير عن الألم والشجن والارتياب والقلق وإنما انصرف إلى عواطف الناس السياسية والوطنية من حوله ٠

وهكذا كان الشاعر محمود حسن إسماعيل "صوتا ملهما يطلب الحرية ويدافع عنها بأقصى حدود الاستطاعة ، عاش ثائرا مع الثوار ، أبيا في موكب الأحرار يتخذ من الحق والعدل شعارا له وأي شعار" (٥)

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان نار وأصفاد صـ ١٠٤٧ ٠

(٢) السابق صـ ١٠٣٠ ٠

(٣) السابق صـ ١٠٩٤ ٠

(٤) ينظر في ذلك قصيدته النداء المقدس ، وشجرة الحرية ، والزحف المقدس ، وقصة القناة ، وأنا الشرق ، القدس تتكلم ، المسجد الصابر ، الأذان الذبيح ، وغيرها ٠

(٥) الأدب العربي الحديث د \ محمد عيد المنعم خفاجي ج ٢ صـ ١٧٢ الطبعة الأولى مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٥ هـ \ ١٩٨٥ م

ثالثا :البعد الجمالي

وأعني به البعد الذي تتجسد من خلاله مصادر الإحساس بالجمال في الطبيعة والكون ، إذ للطبيعة تأثيرها في مشاعر الإنسان في كل زمان ومكان وللطبيعة سلطانها على الشاعر العربي ، فهي تأسره ، وتملك عواطفه ، فيندمج فيها بآلامه وآماله ، وهي منزل وحيه ، تنطلق فيها نفسه ، وتجود فيها قريحته والشعر هو ابنها ، منها نشأ ، وفي أحضانها ترعرع ، وبمثلها العليا بلغ الكمال وآداب العرب وسيرتهم ناطقة بشدة حبهم لبيئتهم وهيامهم بها منذ القدم (١)

وإذا تساءلنا كيف لشاعر عايش المحن ، في ظل هذا الشقاء الذي اكتوت بناره نفوس بريئة لا تعرف من الحياة إلا الإخلاص لعملها ؟ محرومة من أتفه متع الحياة ! كيف له أن تجود قريحته بفن من فنون الطبيعة الجميلة ؟ (٢)

والجواب ! أنه لم يكن لهذه الروح التي احتضنتها الطبيعة ، وعشقت الفن ورأت فيه صورة لجمالها ووحيا لإلهامها ، لم يكن لها من سبيل سوى البحث عن الجمال الذي توشح به ريف مصر ، وتغلغلت فيه روحه الشابة ، وامتزجت به الامتزاج الذي أورثها الحنين الدائب لتلك الحياة الهادئة بين الحقول المصرية الممرعة برباها ، وأزاهيرها ، ونحلها ، وأطيارها ، ونخلها ، وأكواخها

وفي هذا البعد الجمالي تتعدد نوافذ الجمال فهي في الطبيعة والكون وهو في الطفولة والمرأة والذات المبدعة وهو في الخير

والحق والجمال وأن كنا سنركز حديثنا حول شيئين اثنين هما الطبيعة والمرأة :-

(١) ينظر شعر الطبيعة في الأدب العربي د\ سيد نوفل ط٢ صـ٢٨ دار المعارف د \ ت .

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ ١٧٩ .

أ- في الطبيعة

إن اتجاه "محمود حسن إسماعيل " إلى الطبيعة وإن كان اتجاها رومانسيا إلا أنه كان مدفوعا إليه بحبه الشديد للريف ، وتعلقه به ، واهتمامه منذ شبابه الأول بالفلاح وقضاياه مما يعد به "إسماعيل " رائدا أو صاحب اتجاه خاص في الطبيعة ، كان له أثره الواضح ، ووجه الأنظار إلى ريفنا ومشاهدنا الجميلة فأقبل كثير من الشعراء على ما في الطبيعة من مظاهر ومعالم يستلهمونها ويعيشون في رحابها .

وقد اشتهر " إسماعيل " بديوانه " أغاني الكوخ " وبشعره في الريف وفي هذا الديوان تناول كثيرا من مظاهر الطبيعة في ريفنا من ذلك قصيدته " سنبلة تغني " وفيها يحدثنا عن سنبلة القمح التي تباهي بحسنها ، وتخايل بجمالها ، فيقول على لسانها :- (١)

من له في الأرض ملك مثل ملكي في الكثيب ؟
موردي النيـــل وزادي من ثرى النيل الخصيب

* * * *

كلل الفجر جبيني بالندى الغض الرطيب
والأصيل البر ألقى تبره بين جيوبي
وشعاع الشمس حيا في شروق وغروب
لو رأى الرهبان طهري وصلاتي في المغيب
هجروا الدير وخروا سجدا فوق كثيبي

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ ٧٣ .

ثم يجعلها تحكي حالها مع الربيع وعهده الغض النضير ، فتقول :- [١]

كم ربيع ناعم الآصال طلق الغدوات !
نمت فيه عفت المهد بحضن الربوات
بين ترتيل السواقي وزفيف النحلات
وترانيم الصبايا في سكون الطرقات
والصدى المشبوب حولي من أناشيد الرعاة

ويصف لنا "زهرة" بين الشتاء والربيع كيف زانها الحسن ووشاها البهاء فغدت كالدر يضحك نورها للفجر ، ويرق حسنها للصبح ، ويفوح شذاها عبيرا في ربى النيل ، فيقول :- [٢]

زهرة الوادي تجلت كعروس للربيع
زانها الحسن بطل خاطف اللمح لموع
فهو در في لماها وعلى الجفن دموع [٣]

* * * *

ضحكت للفجر يضفو نوره فوق الزروع
ولصبح حالم كالطيف رفَّاف وديع
ولصحو الطير يشدو بعدما طال الهجوع
ولأنفاس الأقاحي في ربى النيل تضوع

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ ٧٣ .

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ ص- ٨٩ .

(٣) لعل الذوق الأدبي لا يرضى عن مثل هذه الصور أعني تشبيه قطرات الندى فوق الزهرة بالدموع التي تنحدر من العين لمال في ذلك من تضارب في الجو النفسي بين ما تثيره الزهرة في نفس الإنسان وما تبعثه الدموع من معاني الحزن والشجن .

الطبيعة ملاذ آمن

وكما كان الريف في كثير من الأحيان مصدرا لوحي الشاعر وإلهامه كانت الطبيعة ملاذا آمنا ومهربا من الواقع عندما يشتد تأزمه ، وفي هذه الحالة تصبح عالما مثاليا يسوده الهدوء ، فيه الضوء والصفاء والحب ، وتسري فيه شفافية الروح باعتبارها معادلا موضوعيا لما يفتقده الشاعر عندما تثقل قلبه المرارة ويسيطرعليه شعور الكآبة نتيجة للصور المشوهة في مجتمعه الذي يعيش فيه .[١]

ولذا يقول مستنكرا على الفراشة الحالمة أن تخالط عطر الزهور الخانقة داعيا إياها أن تحلق في عالمها السامي الذي ينشده ، حيث لا عالم الأذى ، ولا دنيا الأشباح ، بل عالم الروح والشذى والظلال ، فيقول :- [٢]

تعالي نظر في سماء الخيال	ونهف بجنته النائيـــــة
بعيدا عن الكون حيث المنى	ترف بأظلاله هـــــانية
وحيث الشـذى من أزاهيره	أفاويــح من حلم طافيـــة
ونبر الصــدى من مطاريبه	طيوف على أيكه شـــادية
إذا ظمئت أرواحنا نرتـــوي	بخمر لآلامـــنا آسيـــة
تروَّح عنا شجون الحيـــاة	وتطفي لظى الكبد الوارية
هنـــالك لا أدمـــع ثـــرة	تهـاوى ولا مهجة شاكية
ولا عـالم بالأذى صـــاخب	ودنيا بأشبـــاحها زاريـة

(١) ينظر التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل صـ ٧٥ .

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ١٦٢ ،١٦٣ .

انه يبحث مع "فراشته " عن عالم مكتمل بثرائه وتنوعه ، يحفه النور من كل جانب ، يتمنى الشاعر أن يهفو بجنته النائية لينعم بالحب الأبدي بين حدائقه البرة ؛ لينسى واقعه المرير ، وآلامه المرة ، وأهوال البؤس والحياة الملهوفة والحزن الكظيم ، وفي محاولته صنع هذا العالم الذي يحلم بله ويتطلع إليه دليل واضح على عمل الخيال الذي يبني العوالم الجديدة في مقابل ما نرفضه من عوالم واقعية قاسية [١]

ولذا قال مجسدا تلك الحياة التي يسعى إليها :- [٢]

فهيا نهلل في ظلـــــــها	فنطفو بغدرانها الجاريـــة

ونسبح في جوها كالخيال يرفرف في مهجة غافية
وننسى الدنـــا وأهاويلها وآلامها المرة العـــــاتية
ونفني أســـانا بأندائـــها شعاعا من النسمة الهافية

* * *

الطبيعة والطابع الإنساني

ولعل الظاهرة الجديرة بالملاحظة في تجربة الشاعر مع الطبيعة هي إضفاء الطابع الإنساني وما يتصل به من مشاعر وأحاسيس على المشهد الطبيعي وبث الحياة في تضاعيفه حتى لتصبح هذه المظاهر الطبيعية كأنها مخلوقات بشرية تتنفس وتحس وتتألم وتمرض وتغار وتتألق بالبهجة والفرح الداخلي ، ففي قصيدته " زهرة القطن" لوحة من هذه اللوحات التي يشخص فيها الشاعر زهرة القطن ويعطيها نبض المشاعر الإنسانية ومذاق الكائن البشري إذ يقول :- [٣]

(١) ينظر التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل صـ ٧٥ .
(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ ١٦٤ .
(٣) السابق صـ٢٥ .

يا عروســـا لم تزينـــــها يد غير كف المبدع الفــن الصناع
عقدت اكليلها من ســـــوسن باهت الأفـــواف تبري القناع
مستعار من ضنى العشق ومن لوعة الهجر ومن لون الوداع
يسجد الشـــاعر مـــن فتنتــه سجدة الفـن زها حسـنا وراع

عانقت طيف الضحى واكتأبت لأصيل لاح مخنـــوق الشعـاع
ورنت للشمس يخبو سحرها بعد ما أذهل أجفـــان القـلاع
فبدت حانيـــــة الرأس أسى ترمق الغـــرب بمـض والتياع
مثل صوفي تراءى خاشـــعا مطرق الرأس بمحـراب التلاع
وأتاها الصيف وهـــاج السنا يضرم الأنفاس نارا في البـقاع
فارتدت بُرْنُسَـــــها من ذهب أبيض توج هامات الضـــياع
تحسب الأغصان لاحت بينـه أسطرا تزهو على بيض الرقاع

إنها لوحة لم يكتف الشاعر فيها بوصف تلك الزهرة ، بل قام بإضفاء الطابع الإنساني عليها ، وتصويرها كعروس فاتنة تعقد إكليلها من سوسن ، بل أورد ما تحس به من ضنى الشوق ، ولوعة الهجر ، ولون الوداع ، وأبان أنها تعانق طيف الضحى ، وتكتئب للأصيل ، وترنو للشمس الغاربة في أسى مثل الصوفي تراءى خاشعا مطرق الرأس بمحراب التلاع (١) .

فالطبيعة في واقع الشاعر ليست مادة غفلا يريد الشاعر من خلالها تسجيل الواقع ، أو التعبير عن الحقائق الموضوعية كما يراها ، وإنما هي في واقع الأمر نقطة انطلاق لاكتشاف الظواهر ، والعلاقات التي تربط بعضها ببعض ، إذ أن

---

(١) ينظر شعر محمود حسن إسماعيل محاولة للتذوق الفني د \ أنس داود صـ٥٥ الطبعة الأولى هجر
للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م

احتضان الطبيعة للشاعر وطول إلفه لها جعلاه يدرك أن الخصائص الإنسانية أولا ووجودها في الطبيعة ثانيا بمعنى أن تكتسب الطبيعة حركتها واتساق الخطوط فيها من الإنسان . (١)

ومن وحي أمسياته الحزينة التي كانت كثيرا ما تحتضنه في قريته على ضفاف النيل في أعالي الصعيد يحدثنا عن "أحزان الغروب" عندما يدخل المساء وتستبد به الخواطر الحزينة يعيرنا قلمه فيكتب لنا خواطر المساء الذي رأى فيه موت النهار وبكاء الشمس ، وأسى الشفق ، فيقول :- (٢)

مات النهار وهذي الشمس جازعة عليه تخطر في دامي الجلابيب

كأنها نعش خوفو مال متكئا على سرير بذوب النور مخضوب

أهرامه الأفق يجري فوقف ساحله على دم من عيون الشرق مسكوب

عصبن بالشفق الباكي ولُحْن أسى في موكب رائع التسيار مرهوب

ولعل المقام يطول بنا إن تتبعنا مثل هذه القصائد التي أدارها إسماعيل لا نقول حول الطبيعة ، وإنما مع الطبيعة مندمجا فيها ، مصورا شعوره إزاءها مترجما عما يخالج نفسه من خفايا التجارب بينه وبين

مشاهدها وصورها المتباينة إذ كان يمتاح من عناصر الوجود وصوره عناوين لقصائده كالمساء ، والغروب والأرض ، والنهر ، والشادوف ، والفراشة ، والغراب ، والبومة ، والضفادع والسماء ، النيل ، والجبل ، والبحر ، والكون ، والنجوم .

(١) ينظر التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل صـ ٧١ .

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ١١٧ .

ب – في المرأة

وتأتي المرأة أوالحب على رأس التجربة الجمالية التي برزت فيها تجربة "إسماعيل" إذ إن ظروف حياته القاسية التي انغمس فيها جعلته كغيره من شعراء أبولو يفر إلى رحاب المرأة ليطفئ بحبها جمرة البؤس والحرمان المتقدة في نفسه ويتخذ من حبها ملاذا يحتمي به مما في المجتمع من ظلم وبؤس وتنكر .[١]

وقد ظل "إسماعيل " يرنو للحب ، ويهفو إليه ، ويغني له ، غناء الهجر والحرمان ، وهو في حبه يتطلع دائما إلى مثل أعلى للمرأة ، مثل لم يتحقق في حياته لأن المرأة التي أحبها هي امرأة من صنع خياله السامي ، امرأة مثالية إلى حد بعيد امرأة من وادي الأحلام والأطياف والزهور ، ليست من جسدا بل من روح شفافة وحبها ليس حبا حسيا بل حب روحي

شفاف يسمو فوق نداء الغريزة ويختلف عن ذلك الحب الذي يعرفه معظم الناس [٢] .

ففي قصيدته الذائعة " أنت دير الهوى وشعري صلاة " صورة شفافة رقيقة للمرأة وكأنها من عالم ملائكي ، أو سحري غير عالم البشر، إذ كان يرى في المرأة الجميلة سحرا هو سرها وعالمها ، ولذا يقول واصفا إياها وكأنها من عالم الأساطير أو الخيال:- [٣]

---

(١) لم يصل " محمود حسن إسماعيل " في علاقته بالمرأة والحديث عنها ما وصل إليه د \ إبراهيم ناجي ففي دواوينه الثلاثة "وراء الغمام " وليالي القاهرة "والطائر الجريح " نحس بوضوح أن ما قاله "ناجي "هو خير ما قيل من شعر في المرأة والظمأ إليها ،إذ كان روحا عاشقا متعطشا دائما للحب ، ينظر محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي د \ محمد مندور الحلقة الثانية ، صـ ٥٦ مطبوعات معهد الدراسات العربية ١٩٨٧

(٢) ينظر أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة أ \ رجاء النقاش صـ ٣٦ طبع دار القلم بيروت لبنان د \ ت

(٣) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان هكذا أغني صـ ٢٥٧ .

أقبلي كالصلاة رقرقـــها النسك بمحراب عابد متبتل
أقبلي أية من الله علينا زفها للوجـــود وحيُ مُنزَل
أقبلي كالجراح ظمأي وكأس الحب ثكلي والشعر ناي معطل

ثم يضفي عليها هالة من الحسن والجمال ، فيراها في صور متعددة فيراها لحنا عبقريا ، ونبعا ، وأيكة ، وخميلا ، وظلا ، وجدولا وظلا وترنيمة كأبهى ما تكون أنثى من عالم البشر فيقول :- [٢]

أنت لحنُ علي فمي عبقري وأنا في حـدائق الله بلبل
أنت نبعي وأيكتي وظلالي وخميلي وجـدولي المتسلسل
أنت لي واحة أفيء إليـها وهجير الأسى بجنبي مشعل
أنت ترنيمه الوجود بشعري وأنا الشـاعر الحزين المبلبل

فالشاعر هنا لم ينس أن يخلع عليها من صور الطبيعة ، ما يزيدها بهاء وحسنا ثم يطلب إليها أن يعيشا في عالم من الخيال بعيدا عن واقع الناس وعن دنياهم هناك حيث الأحلام والرؤى والمنى والعش الجميل الذي يأوي إليه كل حبيب إلى جوار حبيبه يقول :- (٢)

فتعالي نغب عن ضجة الدنيا ونمضي عن الوجود ونرحل
وإلي عشنا الجميل ففيه هزج للهـوي وظل وسلسل
ووفاء يكاد يسطع الدنيا بشـرع إلي المحبين مرسل
عاد للعش كل طير ولم يبق سـوي طائر شريد مخبل

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان هكذا أغني صـ ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) السابق صـ ٢٦٤ .

ثم يشكو هجرها ، وتناسيها لوده ، وآلام قلبه الذي ملء بالجراح والشجون ، فأصبح يخشى فوت اللقاء ، في إشارة إلى اقتران الحب بالموت فيقول :- (١)

هو قلبي الذي تناسيت بلواه فأضحي علي الجراح يولول
أقبلي .. قبل أن تميل به الريح ويهوي به الفناء المعجل
أقبلي فالجراح ظمأي وكأس الحب ثكلي والشعر ناي معطل

وكثيرا ما كانت المرأة عنده عالما خاصا يحيطه بسياج من القدسية والجلال ، يقول مجسدا عزتها وصيانتها من قصيدته " من لهيب الحرمان "(٢)

أسدلت سترها !وقالت رويدا عابد الحسن واتئد في صلاتك
غب قليلا عن العيون وانشد خفقات الغرام في خلواتك
إن همسا يرف في ساحة المعـ بد أخشى ذيوعه من وشاتك
غب قليلا وفي دمي لك عهد أنا والحب والمنى لحياتك

وفي أحيان أخرى كان الحب عنده حزينا متشائما لأنه يصطدم في كثير من الأحيان بعقبات تجعل منه حبا يائسا فاجعا ، وها هو ذا يناجي حبيبته بكل ما تحمله عذابات الحب من الأنفاس الحارة ، والدموع المضنية ، طالبا إليها أن تدعه في وحدته وانفراده وصمته فيقول :- (٣)

ذريني وصمتي وانفرادي وغربتي
فإني لقيت السر في ظل وحدتي
ولا تسأليني عنه فهو أمانة
ينوء بها في الأرض قلب البرية

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان هكذا أغني صـ ٢٦٤ .

(٢) السابق ديوان أغاني الكوخ صـ٢٦٤ .

(٣) السابق ديوان أين المفر صـ ٦٩١ .

والمرأة عنده زهرة يفوح شذاها ، ويضوع عبيرها وهي ملهمته التي تفجر فيه طاقات الإبداع ، غير أن شكوى الحرمان لم تفارقه يوما ما وهو العف الطاهر ، العاثر دائما في حبه ، المأزوم غالبا في علاقته بالمرأة المجروح على الدوام في نفسه وكبريائه من صدها وهجرها ، يقول :- (١)

شقيت بحبي وهو عف مطهر وغيري سعيد في الهوى بالمآثم
تعلقتها عذراء يندي حديثها صفاء تجلى من عفيف المباسم
تلقيت منها وحي شعري ساميا وأُلهمت منها خالدات الملاحم

ثم يعبر عن هذا الحب المثالي الحزين المتشائم ، الذي يجسد المأساة الكامنة في نفسه مأساة اقتران الحب بالهجر وتبدل الحبيب وذبول زهور ربيع الحب على يد هجران الخريف القاسي وجفاف أنهار المحبة الجارية ليتبدل الصفاء كدرا والأفراح أحزانا ، والسرور أسى ، فيقول :- (٢)

ولما تلاقينا وكاد صفاؤنا يرفه من وجد القلوب الهوائم
تصاوحت العيدان في جنة الهوى وجافى رقيق اللحن عش الحمائم
وبدلت الابتسام بين أراكها فحيح أعاصير ولفح سمائم
سألت رباها أين بلبلك الذي تغنى طويلا في المروج النواسم؟
فأطرقت الأغصان حزنا وأصبحت كمرتبك من حيرة الفكر واهم

على هذه الشاكلة كان الحب عند "إسماعيل" حبا وجدانيا مثاليا ،يصور المرأة في هالة من التقديس والكمال ، ويغلب عليه طابع الحزن العميق ٠

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان هكذا اغني من قصيدة دنيا أدمع ومآتم صـ ٢٠٦

(٢) السابق صـ ٢٠٩ ٠

رابعا : البعد الإنساني

تعد التجربة الشعرية تجربة إنسانية في بعدها الأعمق إذ تتمحور هذه التجربة حول ذات الإنسان وتعبر عما يتدفق في أعماقه من مشاعر وأفكار ورؤى وتحاول رصد علاقته بالكون والحياة ٠[١]

والإنسان هو المحور الذي يدور حوله الإبداع الشعري في كثير من شعر "محمود حسن إسماعيل" الإنسان البسيط الذي يتطلع إلى حياة عادية ولكنها عادلة ٠

وتواصل الشاعر مع الإنسانية من خلال تجربته هو الذي يمنح فنه ديمومته وبقاءه نحو عالم فيه من قيم العطف ، والتسامح ، والرحمة ، والعدالة ، ونبذ الفرقة والضغينة ، فضلا عن توافقه مع الفطرة النقية التي تعلي من كرامة الإنسان ، وتدعو إلى الرفق به ، والعطف عليه ، وتنادي بمبادئ المحبة ، والإخاء البشري وتسمو بكل ما يميز الإنسان ، ويتيح الانطلاق لمواهبه [٢]

وهذا البعد الإنساني يدفع الشاعر إلى الإيمان بالإنسانية في صورها العليا والارتفاع على النزعات العارضة الوقتية [٣]

ففي قصيدته "اللاجئون " يقف الشاعر مستشعرا آلام إخوانه من اللاجئين بين الخيام والظلام وهدير السيول في أرض المعراج في شتاء مقرور الرياح مسعور العواصف حرقت أمطاره خيامهم فأصبحوا عرايا بلا مأوى ، يندبون حظهم التعس وواقعهم الأليم ، والزمن لاه عنهم ، لا يسمع لأنينهم ولا يصغي لبلواهم ، فيقول :- [٤]

(١) ينظر صلاح عبد الصبور حياتي في الشعر صـ ٥ دار اقرأ بيروت ١٩٨٣ .

(٢) ينظر أدب المهجريين بين أصالة الشرق وفكر الغرب د \ نظمي عبد البديع صـ ٥١٨ دار الفكر العربي ١٩٧٦ م .

(٣) ينظر جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د \ عبد العزيز الدسوقي صـ ٤٦٦ د الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م

(٤) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان نار وأصفاد صـ ٩١٤ .

بكى عليَّ الصَّدى واللَّحْنُ والوَتَرُ ... وَلَمْ أَزلْ لِعَذّابِ الشِّعْرِ أَنْتَظِرُ
كانوا بأوطانهم كالناس وانتبهوا ... فما همُ من وجود الناس إن ذُكِرُوا
مُشَرَّدُونَ بلا تيهٍ فلو طلبوا ... تجدُّدَ التّيهِ في الآفاق ما قَدَرُوا
يلقى الشريدُ فجاج الأرض واسعةً ... لكنهم بمدى أنفاسهم حُشروا
في خيمةٍ من نسيج الوهم لفَّقَهَا ... ضميرُ باغٍ بمجدِ العُربِ يأتمرُ
يا منْ لِقومٍ على الأوحال ينهشهمْ ... غول الشتاء بريح فجرها عكر
كانوا عُراةً فغطى البرد أعظمهم ... والجوُّ خفَّ لهم بالموت يعتذرُ

وكُبكِبوا في مخـــــاضاتٍ يُشل بها خطـو الرياح وتنعي نارها سقرُ

ما بين طفل تمد الـــــراحَ نظرتهُ وأمه في مطـــاوي النزع تنفطرُ

وغـادةٍ تُمهلُ الأقــدارُ فتنتـــــها في بغتة الأفـق لم يُدرك لها خبر

وطيـفِ عُرجون شيخٍ في تهــاربـهِ مع العصا كـــان شيخًا ثم يندثرُ

أسطـــــورةٌ تُخجل الدنيا حكايتها بل نقمةٌ في حشا الأحرار تستعرُ

ومـن مظـاهر البعـد الإنسـاني ومشـاهد العطـف الممزوجـة بالرحمـة ، العطف على (البغايا) ممن وقعن فريسة لظلم المجتمع وقهره ، وتفشي الانحراف فيه ، ففي قصيدته " دمعة بغي" يسوق لنا تجربة مع فتاة ريفية ذهبت إلى المدينة بدافع الحصول على عمل يكفيها مؤنة العيش ، فوقعت فريسة في يد من لا وازع لـديهم مـن ديـن أو رحمـة أو ضـمير ، ففتـك الجنـاة بعفتهـا وهتكـوا عصـمتها ، وتحولت إلى سلعة تباع وتشترى ، سلعة لتجار المتعة الحرام ، مع أنها ضحية مظلومة ، فقال مصورا حال تلك الفتاة :- (١)

عصفت بي الأقدار من بلـدي فتركته واحســـــرتا وطني

كوخي الجميل وملعبي وددي ومراحي المحبوب واحزني

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ ٩٢، ٩٣، ٩٤ .

ونزلت في بلد شهـــدت به قدس الحجاب ممزق الستر

مشت الفضيلة من كـواعبه مشي الذليـــل بربقة الأسر

* * *

يسرين والأجســـام عارية تغري بحسـن القد والقامة

فضحت معاطفـــهن أردية كحبائل الصيـــــاد نمـامة

* * *

وشبابُه غاو قصـــــاراه — من عيشه لهو وتجميـــل
سلب الأنوثة من عــذاراه — ومشى عليه العار مسلول !

* * *

وجرت على حسني المقادير — فوقعت فيــما كنت أخشــاه
عبثت بفتنتي القـــــوارير — وصبـــابة الشاكي ونجواه

* * *

سرق الأثيم قداستي ومضى — ومضيت اندب حظي الكابي
حيرى تروم القبر لي عوضا — عن خسة الدنيا وأوصابي

* * *

فأبى التراب لمـــا يدنســه — من لوثـــة الآثـــام والعار
فنزلت ما أقذى وأرجســه ! — بيت الفجور وعش أوزاري

* * *

افتر فيــه لمن يســاومني — عرضي بما يلهي الطوى شبعا
ويد تصـــــافح من يكلمني — ويد تصـــــون القلب أن يقعا

* * *

ويقال في حكم الهوى سقطت! — ونعــم ولكـــن من خداعكم!
لولا أذى الإنســان ما حملت — إثم الهـــوى عذراء ويحكم !

وبدافع التعاطف الإنساني الكبير وبلوغ إنسانيته أقصى مداها يصف لنا ثورة الطبيعة في زلزال هز أرجاء " تركيا" فوقف بقلبه الحاني ودمعه الرقراق مع هذه البلدة الجريحة باكيا ما أصابها ، ونادبا ما حل بها ، وهي تتلوى من فجأة

الزلزال ، وتئن من هول صدمته ، قبيل شروق الشمس ، فأخذ يصف ما تركه من أهوال و يعزي الضحايا ، ويواسي المنكوبين عارضا لحال طفل بائس فقال:- (١)

واها على الطفل المهدهد في الكرى ... حملته كف الريح في لطماتها

وحلت كراه بغفوة أبدية ... لا يستريح الموت من حفراتها

بعد الأسرة والحنان يهزها ... صعقته أم الصخر في هزاتها

وقال في شأن الأم الثكلى :- (٢)

يارب ثاكلة تدور بهولها ... فترى حشاها انسل في طرقاتها

صرُعت فلا مدت يدا لوحيدها ... عند الفراق ولا مرت عبراتها

وفي شأن الحبيبة التي فقدت حبيبها يقول :- (٣)

وحبيبة فجعت ووعد حبيبها ... يجري مع الأنفاس في زفراتها

قبل اللقاء هلكن فوق شفاهها ... ودجا دخان الموت في مرآتها

وعن المساجد والكنائس وما آلت إليه يقول :- (٤)

ويح المساجد ما دها أركانها ! ... فهوت منابرها على سداتها

أين المآذن أين صوت أذانها ... في الفجر أين مضى رنين دعاتها ؟

وكنيسة كانت تميمة راهب ... سهران يرقب في الدجى دقاتها

أجراسها قرعت فخف بصوتها ... أهل المسيح وتمتموا نبراتها

وإذا نواقيس القضاء بساحها ... تلقي نذير الموت من أصواتها

وإذا بهم صرعى على صلبانهم ... أشلاؤهم نثرت على خشباتها

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان رياح المغيب صـ ٢١٢٧ .

(٢) السابق صـ ٢١٢٧ .

(٣) السابق صـ ٢١٢٨ .

(٤) السابق صـ ٢١٢٨ .

ثم يتساءل في حسرة مريرة :- [١]

أين المـروج الفيح أين خميلـــها ؟ وفم الضحى التمتام في ورقاتها
أين الكروم النافضات عروشـــها ؟ الذابلات أسى على عتبـــاتها
عرى الشتاء غصونها وطوى الردى حلم الربيع النضر من عذباتها

وإمعانا في هذا الجانب الإنساني الذي هو ديدنه وطبيعته ، يلتمس العذر للطبيعة ويحاول جاهدا أن يجد لها مبررا ، على الرغم من فداحة الخطب وهول المصاب وجلال الرزء ، زاعما أنها الأم ، وهو أثر من آثارها وزلة من زلاتها وهفوة من هفواتها يوجب الصفح عنها ، فقال معزيا النفوس عن أساها :- [٢]

يا بنت أهوال الطبيـــعة إنها أم يلذ العفـــو عن هفواتـــها
حسناء ساخرة يعابس سحرها بالموت فاغتفري لـــها زلاتـــها
وأصغي لغريد كجرحك جرحـه والنفس كم شقيت بسر حيـاتها
غني أسى الزلزال في أنشودة سوداء فانية على آهـــــاتها

وهذا البعد الإنساني لم يفارق الشاعر في الكثير من قصائده ، بل وقف عند مشاهد الأسى والألم ، وتعاطف مع كل بائس قضت عليه الأيام ببؤسها ، كما في قصيدته " فقراء " [٣] وقصيدة " قصة الكوخ " [٤] وقصيدة " ضجة الروح في يوم عيد "[٥] وقصيدة " الزهرة اليتيمة " [٦] وقصيدة " ساعة مع الكوخ "[٧] وقصيدة " اللحن المقهور "[٧] وغيرها وهذه النماذج صورا لمن وقعوا فريسة للإذلال والقهر أو ضحايا الاستعمار أو الطبيعة مما يدل على رحابة إنسانيته ، وتعدد أبعادها ومظاهرها ، وتنوع صورها .

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان رياح المغيب صـ٢١٢٨ ٠

(٢) السابق صـ ٢١٢٩ ٠ (٣) ديوان لابد صـ ١٣٣٧ (٤) قاب قوسين صـ ١٣٣٤

(٥) أغاني الكوخ ١٩٧ ٠ (٦) اين المفر صـ ٧٦١ (٧) قاب قوسين صـ ١١٢٥ ٠ (٨) أين المفر ٧٥٧ ٠

خامسا : البعد الصوفي

وفيه تتجلى التجربة الشعرية في مظهرها الصوفي الذي يهدف فيه الشاعر إلى الوصول إلى الحقيقة والاندماج بها ، ثم الاتصال بالله أو بالعوالم الأخرى التي لا يمكن الاتصال بها في الأحوال العادية ، وهي بذلك تؤدي دورا هاما في تحويل التجربة الشعرية من المنزع الشخصي إلى الإنساني والكوني[١]

ودواوين الشاعر الأخيرة " قاب قوسين ، ونهر من الحقيقة ، وموسيقى من السر " تكاد تنفرد بمعالجة هذا البعد ، وبالنظر في هذه القصائد يتضح لنا أن البعد الصوفي عند الشاعر يدور حول عدة محاور أهمها :-

الأول : معرفة الله ٠

الثاني : التأمل في قيم النفس الإنسانية ٠

الثالث : خطايا النفس ودفع الشيطان ٠

(١) **معرفة الله** ! في هذا المحور ينطلق الشاعر في رحلة إيمانية لمعرفة الله محاولا تعقب الظواهر الكونية والوجودية لإرشاده

إلى تلك الحقيقة ، وقد سلك الشاعرين طريقين لمعرفة تلك الحقيقة :-

الأول : أن الله ذات واحدة تتعدد آثار وجودها في الكون فالله ليس فكرة يتأملها الإنسان ، وإنما هو معنى كل وجودنا ، يسري في الكون بأسره ويخلع عليه سر الحركة والحياة ، والعالم ظل الله الذي تسري فيه روحه [٢]

(١) التصوف في الشعر العربي د \ عبد الحكيم حسان صـ ٦٧ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٤ م

(٢) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل صـ ٤٣ .

ففي قصيدته " الله والذات " يقف على أعتاب هذه الذات متأملا ، فيقول :- [١]

وقفت طويلا ، على سدتك
أنادي : ربى النور في سدرتك
أنادي وأجأر في حومة
من الصمت تهدر في حضرتك

* * *

وأنشق ذاتين : ذاتا تنوح
وذاتا تسبح من خشيتك
وكلتاهما من رياح الضمير
صدى ذائب في صدى موجتك
تصيحان من غير ذكر ولا

صلاة تـــــؤوب في خيمتك ٠

ويقول في قصيدته " موسيقى من الإيمان " مجسدا هذه الحقيقة [٢]

ظمئ الإيمان في أعماق روحي ٠٠٠ ذات مـرة
وأنا جاث على الأعتاب لا أعـرف سره
كبـل الحـب ضيـائي بقيـود مستمرة
إن مضى هذا ، أتى هذا ولا أعلـم أمره

* * *

ليس للإيمان أسوار وأصفاد بذاتك ٠٠٠
لا ! ! ولا فيه مكان أو زمان لحياتك ؟ ؟
هو كل النور ٠٠ أنى ذقته في سبحاتك !

---

(١) الأعمال الكاملة محمود حسن إسماعيل ديوان صوت من الله صـ ١٦٨٥ ٠

(٢) السابق ديوان موسيقى من السر صـ ١٩٩١ ، ١٩٩٣ ٠

الثاني : تجلي القدرة الإلهية في الكون ، بمعنى أن الله حاضر في الأشياء التي يبصرها والقيم التي يعتنقها ، وهذه الحضرة الإلهية قد خلعت على تلك الأشياء طابع القدسية ، وكانت السر الذي أعطاها الحياة والحركة ، وببحث الشاعر عنها أصبحت طيعة لديه تجسد له الغامض من معانيه [١] ٠

يقول في قصيدته " الله " مؤكدا على هذه التسوية ، وعلى وجود هذه الحقيقة :ـ [٢]

إ لهي رأيتـــــك !

إلهي .. وفي كل شيء رأيتك

إلهي سمعتـــــــك

إلهي .. وفي كل شيء سمعتك

رأيتك في كـــل حي

سمعتك في كل شيء

وفي كل أفق بروحي شهدتك .

ويقول في قصيدته " موسيقى من السر " [٣]

كلما أبصرت شيئا

كنتَ فيه كل شيء

أبصر الليل..فألقاك به شلال ضوء !

أبصر الظل ..فألقــاك به أنهار فئ !

---

(١) ينظر التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل صـ ٤٤ .

(٢) الأعمال الكاملة محمود حسن إسماعيل ديوان نهر الحقيقة صـ ١٨٤٥ .

(٣) السابق ديوان موسيقا من السر صـ ١٩١٩ .

أبصر الزهر..فالقاك به موج عبير!

أبصر الروض ..فألقاك به شط غدير

أبصر الليل..فألقاك به شلال ضوء !

(٢)التأمل في القيم المتعلقة بالنفس والأشياء لإدراك الحقيقة ومن هذه القيم الحق ، والخير ، الجمال ، العدل ، اليقين ،السلام، الصلاة الأمان الخلود ، البقاء ، الأمل ، التوبة ، الرجاء ، الحرية الوحدة ، الإصرار .

يقول في قصيدته الحياة :- [١]

مع الحيـــاة

حياتي حياة

وعمري جديد أراه

فما فات منها رحل

وما غاب فهو طريد الأمل !

ومع الحب يقول :- [٢]

حبيبي حياة

وحبي حياة

وفي وجهه كل نور حياة

وفيــه الهـــوى والأمل

ومع الأرض ، يقول : - [٣]

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان نهر الحقيقة صـ ١٨٥٣ .

(٢) السابق صـ ١٨٤٩ .

(٣) السابق صـ ١٨٧٥ .

أرضي وما أقدسها حياة

ترابها حياة

وماؤها حياة ٠٠ وعشبها حياة

نسيمها قبل

وأفقها أمل

ومع النفس يقول :- [١]

كلما هل صباح

وهفا كل جناح

وعلى الورد صاح بلبل يشكو هواه

رددي شكواه واسجدي لله ٠٠

كلما رن أذان

موقظا سمع الزمان

وشدا كل جنان ضارعا يدعو سماه

فاسمعي نجواه واسجدي لله ٠٠٠٠

وهذا الجانب الذي يتصل بالتأمل في القيم المتعلقة بالنفس والأشياء مادة دسمة لعالم النفس ؛ لأن الصوفية هم أساتذة علم النفس في العالم ، فقد تعمقوا في أغوارها ومساربها وأحاطوا بأهوائها ودوافعها ونوازعها وتفننوا في ذلك حتى وصلوا إلى كشوف نفسية وعالمية (كمركب الكمال) الذي توصلوا به إلى السماء وإلى الإشراق والنور [٢]

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان نهر الحقيقة صـ ١٨٧٧ ٠

(٢) ينظر الأدب في التراث الصوفي د \ محمد عبد المنعم خفاجي صـ ٢٣ مكتبة غريب القاهرة

د \ ت .

(٣) خطايا النفس ودفع الشيطان .

وفي هذا الجانب يقر الشاعر بخطايا النفس ، ويفضي بارتكابها للشرور والآثام ولذا يطلب من الله تأجيل موعد اللقاء ؛ لأن الخطايا تواكبت عليه ، والتوبة ماتت في مهدها بين يديه ، فهو يريد عمرا ثانيا ، ولعلها من وحي قوله تعالى في سورة المؤمنون "حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت" [١] يقول في قصيدته(النفس والخطيئة) : - [٢]

كل الخطايا في يدي يا رب أجل موعدي
فتوبتي مـــوءودة في مهـدها لم تولد
مازلت أدعـــو الله للروح منـذ مولدي

ولكن الشيطان لا يترك التائبين النادمين على ما بدر منهم فهو يسدد سهامه لكل تائب ، ويغري بالمعصية كل ناسك ، ويقابل الشاعر ذلك بمزيد من الاستنجاد طالبا بعض النور في ظلمات الحياة ، واثقا أن باب السماء لم يوصد فيقول :- [٣]

رباه بعض النور قد طم الدجى في خلدي
سبحت بالإيمان في تيـــــه عميق أبدي
قلبي إلى نورك نشوان بحـــب سرمدي
منطلق إلى ســـــماء بابها.. لم يوصد

ويعترف الشاعر بشيطانه الذي سيطر عليه ، وأطاعه في الغواية والضلال

ويحاول جاهدا أن ينفلت من وثاقه ، ويهرب منه دائما ، فيقول :- [٤]

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .
(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان قاب قوسين صـ ١١٧١ .
(٣) السابق صـ١١٧٤ .
(٤) السابق صـ ١١٦٨ .

هي نفسي وهي شيطاني الذي منـه هربت
سكنت فيَّ وفي صحرائـها الكبـرى سكنت
وعلى مصباحها المخنوق في السفح أقمت
وكما ينطلق الإعصـــار في الليل انطلقت
وتسللت الفجاج الســـــود فيه ومضيت
راهبا ضلت مسوحي في هـــداها وضللت

فإذا وصلنا مع الشاعر إلى (شاطىء التوبة) عنوانه لقصيدة أخرى ، بكي وذرف الدموع حزنا على معاصيه، وقد سمعها تعوي كالذئاب ، وتنوح كالثكالى يقول : - [١]

وجئت ندمان أزجي إلى المتاب خطايا
أبكي وتبكي ويبكي دمعي ويبكي بكايا
وفي يدي عنـــــاء مـولول مـن أسايا
وحفنـــــة من دعاء غرفتـه مـن دمايا

يقول يا رب ! هذا.. إثمي وهذي تقـــايا

وذاك دربي وهذي على الطريق عصايا

ما كنت أعمى ولكن أعمى أغني شجـايا

وإذا تساءلنا ماذا يريد ، وماذا يكره؟ أجابنا: - [٢]

أريد لقـــاء الله لا لمتـــــــــابة

ففي كل سر منه تســـكن توبتي

أريد لقـــاء الله دعـــــــوة حائر

تلاشت خطـــاه عند باب الحقيقة

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان قاب قوسين صـ١١٧٧ .

(٢) السابق صـ ١١٦٣ .

هكذا يتغلغل خلق الصوفي في تجربة الشاعر وفي نفسه ، وما سبق لا يدعنا نتعجب من كون "محمود حسن " صوفي المزاج ، وليس عجيبا أيضا أن يكون صوفي نشأة ووراثة وتأثيرا وجد فيه وفرض عليه وأملته على اصطدمت بصخور الزيف والباطل وخلل الموازين يقول في قصيدته "بين

الله والإنسان :- [١]

إن كنت لا تعرف سرَّ دمعةٍ يذرفها الفقـيرْ

يسقي بها خريفه العطشان في لهائه المريرْ

فيزرع الوهم على جفونه بستـــانَه النضيرْ

وهذا البعد الصوفي ما هو إلا منزع ديني يتكئ عليه الشاعر في تجربته الشعرية ، وقد جاء أكثر عمقا وتأثيرا وارتباطا بعالم الواقع والمثالية ؛ لأن الاتجاه الديني لدى الشاعر ليس إلا مظهرا من مظاهر تجربة شعرية أوسع وأشمل هي تجربته التأملية التي يجوب فيها بعقله ووجدانه عالم النفس والكون من حوله محاولا استبطان أسرارها واستجلاء ما يكمن في حناياها من حقائق . (٢)

وبهذا يعد إسماعيل أحد أكثر من استهواهم الجانب الصوفي والديني فى الشعر من بين شعراء عصره ، حتى ليخيل للقارئ في بعض الأحيان أن تجربته تتحول إلى مناجاة ، بل يتحول الشاعر نفسه حينما يتحدث عن الله سبحانه إلى روح شفاف يقطر الحب والصدق من مداد حروفه .

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان " لا بد "صـ ١٣٥٣

(٢) شاعرية محمود حسن د \ شفيع السيد صـ ١٧٩ وينظر أيضا الأثر الصوفي في شعر محمود حسن
إسماعيل قراءة نقدية د محمد عيد صـ ٥١ طبع دار الفكر بيوت لبنان .

البعد الصوفي والنزعة التأملية

ومن خلال البعد الصوفي الذي تحقق في تجربة إسماعيل تبدو النزعة التأملية واضحة جلية في غير القليل من شعره ، وفي الكثير من تجاربه ، غير أن تأمله لم يكن تأملا فلسفيا منبعثا عن مزاج ، يغوص وراء الحقائق ويستكنه الأسرار وإنما كان في الغالب تأملا منبعثا عن حالته النفسية وما يستشعره من بؤس وكدر يدفعه إلى التأمل في أسرار الحياة

والموت ، كما في قصيدته النعش التي يصور فيها حال المرء مع الحياة يتمنى فيها البقاء ويسعى إليه بكل طاقته في غفلة من واقعه ، متناسيا أو ناسيا مصيره المحتوم فيقول :- (١)

يا عابرا هبط الدنيـــــا فظن بها مراتع الخلد لا تحصى بمقدار
فراح يطرب مخدوعا بفتنتـــــها ما بين لهو وكاســات وأوتــار
حتى أدارت له الأيـــــــام هازئة كأسا مبرأة مــن وصمة العار
من كرمة الدهر من طافت بساحته لا يستفيق صريعا بين أحجار
حتى ثوى في حفير ويـــــلاه من ظلماته
يلهو مع الدود فيه لهو البلى في رفاته

ويعجب من شأن حاملي النعش في إسراعهم بالموتى كيف لا يتوانون في سيرهم ، وقد أعياه أمر الموت ، وحال الموتى معه ، فيقول :- (٢)

يا حامل النعش لا تعجل فإن أسى من حيرة الموت أعيا بطش أفكاري
هذا الذي ضاقت الدنيا بمطعمه نصيبه كان منــها عشر أشبـــار!

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ٨٥ .

(٢) السابق صـ ٧٨ ، ٨٨ .

وقد يكون هذا التأمل فيما يحيط به ، حتى لتختلط في شعره النزعة التأملية بالنزعة الصوفية ، فيطالعنا بقصيدته " التراب " ويطيل الوقوف أما أسراره ويتجه للبحث عن حقيقته متأملا ومقررا أحواله مع البشر ،

فمنه خلقوا ، وعليه سجدوا ، وفوق بساطه طال سعيهم ، تدور عليه الراح ، وتجري فوقه الأعاصير وفي النهاية وبعد الطواف إليه يعودون ، ففيه سر من أسرار الله ، فيقول :- [1]

سجدنا عليه وطال السجـــود

فقمنا ندوس على جبهته

ومن صدره انشق فينا الوجود

وطال المسير ودرنا وعـــدنا

سكونا ذليلا على راحته

تدور الريـــاح بأنفـــاســـه

وتجري الأعاصير في كاسه

ويهتز شيء بإحساســـه

يلف السياط على كل حي

ويجد الفناء إلى كل شيئ

كان التأمل الصوفي من الموضوعات الواضحة في شعر "إسماعيل" حيث اتجه إلى البحث عن حقيقة الذات ، وأقر بأنها ذات واحدة تتعدد مظاهرها ووجودها في الكون ، كما سعى للبحث عن الجوانب المتعلقة بالنفس وقيم الحق والخير والجمال ، كما أدرك قدسية كثير من الأشياء التي تشتمل على سر من أسرار الله الخالق ٠

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان رياح المغيب صـ ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ٠

المبحث الثالث أبعاد التجربة دراسة فنية

١- أبعاد التجربة ووحدة القصيدة :

حرص شعراء أبولو على وحدة قصائدهم وقدموا أشعارهم النابعة عن إحساسهم الدافق ، ومشاعرهم الفياضة في صورة تجمع الفكرة والعاطفة والخيال والأسلوب والموسيقى في وحدة تبدو من خلالها عملا فنيا متكاملا يسوده الانسجام والالتئام ، وبذلك برزت وحدة القصيدة في أشعارهم وتحققت في الكثير من نتاجهم الشعري ، وأصبحت القصيدة عندهم عملا فنيا مترابط الأجزاء (١)

وفي شعر "محمود حسن إسماعيل " بدت وحدة القصيدة واضحة جلية في الكثير من تجاربه ، وبالرجوع إلى هذه التجارب نجد الوحدة الفنية ماثلة قائمة فيها حيث تطالعنا الصور الشعرية التي أفرغ فيها خواطره ومشاعره تتعانق ويبني ثانيها على أولها، وثالثها على ثانيها ، بحيث تتجانس وتترابط ترابطا قويا .

ففي قصيدته " شاطئ التوبة " نجدها وقد حوت صورا شعرية دقيقة تمثل مواقف شعرية واحدة ، ودفقات شعورية متحدة ، وتعبر عن تجربة نفسية خاصة اتخذ لها عنوانا يوحي بما في هذه التجربة من حيرة وتشتت وضياع وندم وتوبة وتبتل ودعاء ورجاء ، كل هذه المعاني قبل أن ترسو نفسه على شاطئ التوبة .

ولنقرأ هذه القصيدة لنتبين فيها هذه الوحدة ، والتي بدأها بمحاولة سعيه للوصول إلى هذا الشاطئ الذي فيه النجاة ، فقال :- (١)

وشـــاطئ في يديـــه كفـــــارة للخطايا

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان قاب قوسين صـ ١١٧٥ .

ذهبت يومـــا إليـــه بأدمـــــعي وشقـــايا

وبالمعـــاصي التي صحبتها في ســـرايا

ثم يكشف لنا عن حال نفسه أثناء سعيه فبين أن نفسه كانت مثقلة بالذنوب عيية بما اقترفته من المعاصي ، ينال من الجهد والإعياء ، تعوي حولها الذنوب كعواء الذئاب ، وتفيح كفحيح الأفاعي ، وتنوح كنواح الثكالى ، فيقول :- (١)

ذهبت يومـا ونفسي جريحـــــة تتعـايا

وللمعاصي عـــواء مدمدم فـــي الحنايا

كأنه صـــوت ذئب تغافلتـــــه العشايا

أو فح أفعى شـوتها من الهجير شظايا

أو وخـزة من ضمير للعار فيـــه بقايـا

أو صرخـة من يتيم تلقفتـــــه الرزايـا

ويقرر الشاعر الاستجابة لنداء قلبه ، بعد صراع مع نفسه ، وعناء من الحيرة والقلق والضلال ، والضياع ، فيقول :- (٢)

وجئت ندمان أزجي إلى المتاب خطايا

حيران ضل أمامي وضل خلفي ورايا

وضل أفقي وضجت ارضي له وسمايا

ابكي وتبكي ويبكي دمعي ويبكي بكايا

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان قاب قوسين صـ ١١٧٦ .

(٢) السابق ١١٧٦ .

ويرفع يديه معترفا بآثامه وذنوبه ، مقرا بخطاياه وعيوبه ، التي أبرزها في صورة انسياقه وراء شهواته ، كان منها شهوة الغناء والطرب ، يقول (١)

ما كنت أعمى ولكن أعمى المغني شجايا

دق الدفوف فطارت إليه دنيا هوايا

ويطلب العفو والصفح ، وقد تاقت نفسه إلى الهداية ، والنور ، وضاق صدره بما يحمل من هموم المعاصي ، يقول :- (٢)

رباه !عفوك .. إني للنور مدت يدايا

نزعت أسرار قلبي وجئت ألقي أسايا

واشتكي طـــي صدري دربا سحيق الطوايا

رحمـــاك يـــــارب إني وزورقي والخطـــايا

في لجـــة ليـــس فيها من الضيـــــاء بقـايا

جفت وغاضت ولكـن ما زلت أزجي رجايا

هذه القصيدة تمثل قطعة من قلب الشاعر ووجدانه و التجربة فيها تصور جانبا روحيا يتعلق بحياة الإنسان ، هو جانب الشعور بالندم والإحساس بالتفريط في جنب الله ، وتكشف مدى الترابط الكامل بين أفكارها كما نجد التلاحم بين معانيها فكل بيت خاضع لما قبله متصل بما بعده ، وفيها إلى جوار ذلك وحدة الجو النفسي ووحدة الخواطر والمشاعر مما جعل منها بنية حية وعملا فنيا متماسك البناء ٠

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان قاب قوسين صـ ١١٧٧ ٠

(٢) السابق صـ ١١٧٧ ، ١١٧٨ ٠

٢- التجربة والعاطفة

العاطفة جزء أصيل من أجزاء التجربة الشعرية ، وهي قوة نفسية تثيرها مؤثرات وميول خارجية فتظهر في صورة انفعالات شتى كالحب والبغض والسرور والحزن والأسى والرجاء والخوف ، وغير ذلك ٠

وقد تنوعت العاطفة عند " محمود حسن إسماعيل "وتعددت صورها وتشعبت تبعا لاختلاف التجارب وتنوعها ، فهو شاعر مكثر تهز وجدانه أحداث كثيرة ، وتلتقط من مشاهد الحياة والطبيعة ما يخلق في وجدانه أنواعا من العواطف الإنسانية المتباينة ، وإن كانت في مجملها تصور خلجات نفسه وتجاربه الذاتية كما تمثل شعوره الاجتماعي والوطني ؛ لذلك كان تنوعها ٠

فجاءت حزينة باكية ، يغلب عليها طابع الشجي والألم وذلك في ثنايا حديثه عن بؤس الفلاح ، وآلام الشعب النفسية ، وما يصيب بعض أبناء المجتمع من رزايا ومحن وخطوب اجتماعية ونفسية ، كما في قوله :- [1]

قف في سماء النيل وأصغ إلى محيرين سروا في الحقل وانتشروا

قوم هم الدمع والآهات تحملها أنقاض عظم لهم من خطوها نذر

كادت مناجلهم والله مشربها بأس الحديد من البأساء تنصهر

جاسوا الحقول مساكينا جلابيهم توراة بؤس عليها تقرأ العبر

فالأبيات تصور عاطفته الشجية نحو بؤس الفلاح ، وشظف عيشه وأساه لما تمنى به حياته من حرمان ، وما ران عليها من ظلم الطغاة والمستبدين

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أين المفر صـ٧٣٨ .

والمستنزفين لعرقه وجهده الجهيد ليطيب لهم عيش الثراء [١]

كذلك تبدو هذه العاطفة الحزينة الباكية التي يندب من خلالها اللاجئين يصف أشجانهم ، وينعي حظهم العاثر ، حين قال :- [١]

وغادةٍ تُمهلُ الأقدارُ فتنتها فـي بغتة الأفق لم يُدرك لها خبر
وطيفِ عُرجون شيخٍ في تهاربهِ مع العصا كان شيخًا ثم يندثرُ
أسطورةٌ تُخجل الدنيا حكايتها بل نقمةٌ في حشا الأحرار تستعرُ

كما جاءت قاسية شديدة ، عالية النبرة ، تنبع من نفس متضجرة تلتهب غيظا وحنقا على المستعمرين الغاصبين ، وتثير الهمم في نفوس المناضلين الأحرار كما في قوله :- [٢]

لا تسل عنا و لا أين حمانا؟ وحّد القيد على الدرب خطانا!!
كلما حلت بنا أصفاده فجّرت للبعث صبحاً و أذانا
هذه الأيام تترى حولنا كلما زمّت بنا زادت قوانا

وهذه العاطفة جاءت رقيقة ناعمة تتسرب برقتها إلى الوجدان ، نسمع فيها الهمس والحنين والمنى والأحلام وذلك في ثنايا حديثه عن المرأة والحب كما في قوله :- (٣)

غب قليلا عن العيـــون وانشد خفقات الغـــرام فـي خلواتك

(١) شعر محمود حسن إسماعيل محاولات للتذوق الفني د \ أنس داود صـ ٦١ .
(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان نار وأصفاد صـ ٩١٤ .
(٣) السابق صـ٩٥٣ .
(٤) السابق ديوان أغاني الكوخ صـ٢٦٤ .

إن همسا يرف في ساحة المعـ بد أخشى ذيوعـه من وشاتك
غب قليلا وفي دمي لك عهـد أنا والحـــب والمنى لحياتك

وفي تجربته الصوفية جاءت عاطفته تفيض بالإيمان ، والإقرار بقدرة الخالق سبحانه ، والتسليم والرضا بقضائه ، إذ تتجلى أمامه الحقائق ، وتكشف له خبايا المعرفة ، كما يظهر من خلالها جانب التأمل المنبعث عن فكر مثالي وإشراق صوفي ، **كما** في قصيدته " الله " مؤكدا على وجود هذه الحقائق :- (١)

إ لهي رأيتـــك !
إلهي .. وفي كل شيء رأيتك
إلهي سمعتـــــك
إلهي .. وفي كل شيء سمعتك
رأيتك في كـــل حي
سمعتك في كل شيء

وفي كل أفق بروحي شهدتك ٠

وهذه العواطف في تنوعها تتدافع في نفس"الشاعر" معبرة عن انفعالات جاشت به نفسه من خلال تجربة صادقة ، تنبعث من وجدان صادق وتنبع من ضمير حي ، وتنطلق من قوة انتمائه الوطني والاجتماعي ؛ لأنه عاش الحياة من زوايا متعددة ، فعاشها بوجدانه الذاتي من خلال التعبير عن عواطفه ، وعاشها من زاوية الوطني المناضل بحماسته وغيرته وإخلاصه ، وعاشها برؤية الاجتماعي الذي سلط الضوء على سائر العيوب التي لمسها في مجتمعه وهي عواطف تتسم في مجملها بالصدق والحرارة والسمو ٠

---

(١) الأعمال الكاملة محمود حسن إسماعيل ديوان نهر الحقيقة صـ ١٨٤٥ ٠

٣- التجربة والصورة الشعرية

الصورة الشعرية إحدى الوسائل القوية التي تهيئ للفظ الشعري مجالا ينقله من عالم التقريرية إلى دنيا الفن والشاعرية وهي " الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكامنة في القصيدة " [١]

١- التعبير بالصورة

والمراد بالصورة " أن يحيط الشاعر بدقائق وتفاصيل الشيء الذي يتحدث عنه ، ويقيم علاقات جديدة بين الأشياء يجعل منها صورا متآلفة مترابطة نابعة من وجدانه وأحاسيسه "[٢] وتعد الصورة أبرز الأدوات الشعرية التي يستخدمها الشاعر في صياغة تجربته ، فبها تتجسد الأحاسيس وتشخص الخواطر والأفكار وتتكشف رؤيته الخاصة عن العلاقات الخفية والحقيقية في عالمه ، فهو عندما يصور شقاء الفلاح وبؤسه ، في قوله :- [٣]

قوم هم الدمع والآهات تحملها أنقاض عظم لهم من خطوها نذر

كادت مناجلهم والله مشربها بأس الحديد من البأساء تنصهر

جاسوا الحقول مساكينا جلابيبهم توراة بؤس عليها تقرأ العبر

فإننا نجد هذه الأبيات مليئة بالصور الجزئية وما فيها من التعابير من مثل قوله : قوم هم الدمع ٠٠٠ أنقاض عظم ٠٠٠٠جاسوا الحقول ٠٠٠مناجلهم تنصهر

---

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د \ عبد القادر القط صـ ٤٣٥ طبع مكتبة الشباب ١٩٧٨ ٠

(٢) تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث د \ حسن أحمد الكبير صـ ٥٥٤ دار الفكر العربي ٠

(٣) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أين المفر صـ ٧٣٨ ٠

جلابيبهم توراة بؤس ، وهذه الصور لغة طبيعية لتصوير الشعور العميق بالحزن على الشقاء الإنساني المتجسد في هؤلاء الكادحين ٠

وفي حديثه عن الساقية يورد مجموعة من الصور الجزئية أيضا تتآلف لتكون مشهدا عاما يمزج الشاعر فيه بين الصورة وعناصر الطبيعة ، هو مشهد تهلل النبت بفيض الساقية ، وأنينها وبكاؤها لحال الفلاح البائس في قوله :- (١)

لها عيون دائمات البـــــكا بمدمع كالســـيل في رفده
تفنى دموع الناس من فيضها ودمعـــها باق على عهده
ويزدهي الزهر إذا ما جـــرى منهلها الصـافي على خده

وكما في قوله :- (٢)

شهدت شملة عليه تحاكي كفنـــــا مزقت بوالي رفاتـه
صبغ الخط لونها بســـواد من أسى نحسه ومن عثراته
نصف عريان لو سرى نسم الفجـــر عليها تطير من خفقاته

فهذه الصور الجزئية قد شكلت صورة كلية عامة ، وهو بهذا التشكيل والمزج بين رؤيته واستغلال عناصر الطبيعة قد استطاع أن يجسد إحساسه الذي يعانيه تجاه هذا الفلاح في مشهد حسي زاخر بالحياة والحركة ٠

٢ـ التشخيص ٠

يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى خلع الصفات والمشاعر الإنسانية على الأشياء المادية ، والتصورات العقلية ، وترجع هذه الملكة التشخيصية عنده إلى إيمانه بوحدة الوجود التي تعني عنده أن جميع مظاهر الكون الحسية والمعنوية إنما

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ٦١ ، ٦٢ .

(٢) السابق ديوان هكذا أغني صـ ٣٩٩ .

تجمع بينها الوحدة العميقة ، والعلاقات الوثيقة والأشياء التي حولنا لها حياة خفية وكيان يشبه الكيان البشري [١] وهو من عوامل لجوء الشاعر إلى التشخيص وهو ملكة خلاقة تستمد قوتها وقدرتها من سعة الشعور ، وظاهرة إضفاء الطابع الإنساني وما يتصل به من مشاعر وأحاسيس على المشهد الطبيعي وبث الحياة في تضاعيف الطبيعة حتى تصبح مخلوقات بشرية تتنفس وتحس ، وتتألق البهجة والفرح كما في قصيدة زهرة القطن التي يشخص فيها هذه الزهرة ويعطيها نبض المشاع الإنسانية ، ومذاق الكائن البشري ، حين قال :- [٢]

يا عروسا لـــــم تزينـــها يـد ... غير كف المبدع الفـن الصناع
عقدت إكليلـــــها من سوسن ... باهت الأفـــواف تبري القناع
عانقت طيف الضحى واكتأبت ... لأصيل لاح مخنـــوق الشعاع
ورنت للشمس يخبو سحـرها ... بعد ما أذهل أجفـــان القلاع
فبدت حانيـــــة الرأس أسى ... ترمق الغـــرب بمض والتياع
مثل صـــوفي تراءى خاشعا ... مطرق الرأس بمحراب التلاع

فالشاعر قد صورها عروسا فاتنة تعقد إكليلها من سوسن ، وتحس بضنى الشوق ، ولوعة الهجر ، وتعانق طيف الضحى ، وتكتئب لوقت الأصيل وترنو للشمس الغاربة في أسى مثل الصوفي خاشعة مطرقة الرأس ، وهكذا تغدو "أنسنة الطبيعة وبث الحياة في موجوداتها منهجا من مناهج الشاعر في الإحساس بها ورؤيتها زاخرة بالحياة ، فياضة بالمشاعر والحركات والأحاسيس [٣]

---

(١) ينظر الرمزية في الأدب العربي د \ درويش الجندي صـ ١١١ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٢ .

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أغاني الكوخ صـ٢٥ .

(٣) شعر محمود حسن إسماعيل محاولة للتذوق الفني د\ أنس داود صـ ٥٥ .

٣- المزج بين المتناقضات

من أبرز الوسائل التي يلجأ إليها الشاعر في بناء صوره وإثراء تجربته المزج بين المتناقضات ، ونعني أن الشاعر يمزج المتناقضات في كيان واحد يتعانق في إطاره الشيء مع نقيضه ، ويمتزج به مستمدا منه بعض خصائصه ، ومضيفا إليه بعض سماته ، تعبيرا عن الحالات النفسية والأحاسيس الغامضة المبهمة التي تتعانق المشاعر المتضادة وتتفاعل [١]
ومن صور هذه المزج بين المتناقضات ، قول الشاعر :- [٢]

يا زهرتي طلع الصباح وفي فمي نغم ينوح فهل سمعت نواحه ؟
ما زال يصرخ في الفضاء فلم يجد شفة تناغم لحنه وصـــداحه

فالتعبير بالنغم هنا يوحي بالموسيقى العذبة واللحن العذب ، إلا أن الشاعر جعله نغما حزينا يصدر عنه النواح مزجا للنغم بالنوح ٠

وفي قوله : يصور عالم المرأة وما يحيط به من سياج الطهر والعفة:-(٣)

أسدلت سترها !وقالت رويدا عابد الحسن واتئد في صلاتك
غب قليلا عن العيون وانشد خفقات الغرام في خلواتك
إن همسا يرف في ساحة المعـ بد أخشى ذيوعه من وشاتك

نراه يمزج مزجا واضحا بين الهمس بمعنى رقة الصوت أو الصوت الخفي ، وبين الذيوع بمعنى انتشار الصوت وارتفاعه ٠

(١) بناء القصيدة العربية الحديثة د\ علي عشري زايد صـ ٨٤ دار مرجان للطباعة ١٩٧٨ م ٠

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان أين المفر صـ ٢٠٣ ٠

(٣) السابق ديوان أغاني الكوخ صـ٢٦٤ ٠

٤- تراسل الحواس

ونعني به وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات حاسة أخرى ، فنصف المشمومات مثلا بصفات المسموعات ونصف المرئيات بصفات المشمومات ، كأن يصير العطر نغما ، أو أن يصير ضوء الفجر ذا مذاق طيب ، وهذا النقل وسيلة لإبراز الأثر النفسي والإحساس الدقيق ، وقد جاءت هذه الخاصية في شعر الشاعر إذ استطاع "خلق لغة تبدو للذين

يتشبثون بظاهر العلاقات المباشرة بين الألفاظ كأنها خلطا وهذيانا لكنه في واقع الأمر كان معبرا حقيقيا عن العلاقات الخفية بين الأشياء وحقيقة ما بينها من روابط" [1] فمثلا حينما يقول :- [2]

إن دعاك العطر فامضي واتركيه لشذاه
كم سكرنا من أماسيه وأشجانا ضحاه
وزرعنا فيع أحلاما طواها من طواه
فاشربي من عطرنا الآتي ولو طال لقاه

ففي الأبيات السابقة يكتسب العطر وهو من المشمومات أبعادا عميقة بسبب إحالته إلى حاسة الذوق ، فيكتسب صفات المذوقات المسكرة كما في البيت الثاني الذي جعل فيه العطر مسكرا ، وكما في البيت الأخير فأشربي من عطرنا ٠

واستخدام الشاعر لهذه الخاصية دليل على محاولة استنفاذه لكل ما في نفسه من معان ونقلها كاملة إلى نفس المتلقي هادفا إلى نقل تجربته أو أثر هذه التجربة من نفس إلى نفس ٠

---

(١) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل صـ ٩٥ ٠

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان قاب قوسين صـ ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ٠

خصائص التجربة الشعرية عند
محمود حسن إسماعيل

تتميز التجربة الشعرية عند "محمود حسن إسماعيل" بسمات وخصائص عامة من أهمها :

١ـ التفرد والتميز

إن تجربة الشاعر" محمود حسن إسماعيل" في دواوينه الشعرية المتعددة تعد تجربة متفردة في بابها ، متميزة في خصائصها ، لأن "إسماعيل "أخرج جانبا كبيرا من الشعر العربي من نمطيته التي كانت سائدة في عصره ، وقبيل عصره إلى عالم الخلق والابتكار ، وسابق رياح الحداثة الشعرية ، فهزج بألحان الريف وغنى للقرية ، وتحدث عن الطبيعة واصفا إياها، وغنى للحب والجمال والوطن والحرية والثورة ، وجاءت لغته الشعرية تعبيرية في بنائها وتراكيبها ، تخييلية في أسلوبها ووسائل إبلاغها ، لذلك لمسنا صدق تجربته من خلال تجليات لغته وتميزها وآثارها على قارئها [١]

لنستمع إليه وهو يقول من ديوانه ساعة مع الكوخ وقد عاد إليه فرأى في ظلامه وأغلاله بقايا رفات محطمة من كرامة الإنسان :ـ [٢]

سلاما تراب الكــوخ جئتك زائرا
فأشعلت للبعث الجديد قيـــاثري
وانبت في أوتارها الزهر والربى

---

(١) ينظر التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله "مخطوط "رسالة ماجستير للأستاذ \ عبد الكريم

شبروص ٣١ ، والأعمال الكاملة خاتمة ديوان أغاني الكوخ للشاعر محمود حسن إسماعيل صـ ١٧٢

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان قاب قوسين صـ١١٢٥ .

وعطر الأغاني من خريف المزاهر
وفجرت أنهار الحيـــــاة بصمتها
فغنت بها الأشــواق من كل خاطر
نفضت غبار الرق من فوق جبهتي
وبددت بالأضـــــواء ذل مشاعري

فهذه التجربة تفيض بشعر له مذاق خاص ما أسرع ما يعانقنا ، ونحن نتأمل كلماته وأنغامه ، مذاق يختلط فيه عبير الأرض في صعيد مصر بروائح الريف المصري ، هذا المذاق المتميز هو الذي يجعلنا نكتشف أن لهذا الشعر قاموسا فريد الدلالات ، مذاق تتغلغل فيه روح الإنسان المصري البسيط في صدامه مع متطلبات الحياة القاسية ، وارتطامه الدائم بالظروف القهرية التي عاصرها الشاعر إبان فترة السادة والعبيد في مطلع القرن الماضي .

٢-الرؤية الإنسانية

إن هذه التجربة الشعرية التي تستعرضها دواوين "محمود حسن إسماعيل" هي في معظمها تجربة إنسانية تنحدر من معجم خاص هو معجم الذات المأزومة في واقعها ، المنكسرة في حاضرها المثقلة بأعباء

استشراف مستقبلها وهي في كل هذه الأزمان والأحوال صدى لمعاناة نفسية داخلية يستعر لهيبها في الأعماق وتنفجر براكينها بالأنين والصراخ بحثا عن تعويض نفسي يعيد لها توازنها ، ويقيم عدالة الحق بين ربوعها ،، وعلى أعتاب صبرها الطويل ، يقول من قصيدته " فقراء " مع نظرة الفقير وهي تعتز بالسكينة وترفض المذلة في

حوار بين هذه النفس وصاحبها :- (١)

فقراء ؟ لا والله !

بل نحن الذين شذا الإله يضوع فوق ترابهم (٢)

* * *

يسقيهم لهب الحياة جـــداولا
خضرا تغرد كأسها لربـــابهم

ويزورهم رزق الســـما بيمينه

عرق الطريق يدق حسرة بابهم

وقد استمدت هذه التجربة الشعرية قيمتها وغناها من الرؤية الكلية للإنسان والحياة والطبيعة بصفة عامة من خلال منظور شمولي لا يتجزأ فهو يطالع فى الوجه الواحد عشرات الوجوه ، وفى المعنى الواحد عشرات التنويعات من المعاني ، وفى الصوت الواحد تركيبة كاملة من الأصوات أو سيمفونية متداخلة من الحوارات (٣).

يقول من قصيدته " تغيير " والتي يجسد فيها سعي الإنسان السوي دوما إلى التغيير وطموحه الدائم في أن يكون متجددا يجري مع الحياة ،

وتلك رغبة للإنسان في كل زمان ومكان ، أن يكون أفضل مما هو فيه ، فيقول :- (٤)

غيريني ٠٠٠

فأنا أشتاق أن أبصر شيئا غير نفسي

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان لا بد صـ ١٣٤٧ ٠

(٢) "شذا الإله " عبارة قد تؤخذ على الشاعر لما يشتم منها من تشبيه الذات الإلهية بالنفس البشرية ، ولكن إذا حملت على أن الفقراء يضوع عرق عبيرهم كسبا حلالا طيبا فهم ليسوا حقيقة بفقراء ٠

(٣) من مقال بعنوان شاعر الكوخ لمحمد عثمان الشبكة العنكبوتية في ٢٩ \ ٨ \ ٢٠١٢ م

(٤) الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان نهر الحقيقة صـ ١٨٤٣ ٠

غير أن يصبح يومي في دجاه في ضحاه ٠٠٠مثل أمسي

غير أن أبصر كأسي في سراها كل يوم هي كأسي !

غيريني ٠٠٠

واسمعي في صدى التغيير من همس لهمس

خافت الضجة لم اسمعه من قبل على أعماق حسي ! !

وتشكل هذه التجربة عالما حياتيا قائما بذاته بما يحمله من علاقات بين البشر وبين سائر كائناته المتنافرة والمتجانسة ، إذ كان يرى أن الأرض ليست تلك التى نقف عليها وإنما الأرض فى كل ما هو عربي فالعروبة عنده هى الرمز والكيان الكبير ، وهى محور الحرية بمعناها الأعلى ٠

وهذا البعد التجريبي للشاعر يحفل بالرؤية الكلية للإنسان والحياة ، والتجارب الشعرية عنده تستمد قيمها وغناها من ذلك الإطار الأكبر الذي نطالعها فيه فيبدو الجزء في إطار الكل ، وهو بذلك شاعر التجارب الكبرى ، وشاعر الرؤى الكونية الشمولية [1]

٣-تداخل الوجدان الفردي مع الوجدان الجماعي

وإذا كانت التجربة تتنوع صورها ما بين تجربة ذاتية تعبر عن ذات الشاعر وتصور أحاسيسه ومشاعره ، وعامة تتجاوز ذاتية الشاعر لتعبر عن آفاق عامة سياسية أو اجتماعية ،أو جمالية ، أو صوفية فإن تجربة "محمود حسن إسماعيل" تجربة ذاتية عامة يتعانق فيها الوجدان الفردي مع الوجدان الجماعي إذ تحولت إلى تجربة صوفية وجودية تصور واقع المجتمع ، وتتناول مشكلات

---

(١) ينظر أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي أ \ فاروق شوشة صـ ٢٦٧ مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٩٧ م .

الآخرين ، كما في قصيدته بين الله والإنسان ، إذ يقول :- [1]

إن كنت لا تعرف سرَّ دمعةٍ يذرفها الفقيرْ

يسقي بها خريفه العطشان في لهائه المريرْ

فيزرع الوهم على جفونه بستانَه النضيرْ

ثمارُهُ دانية القطافْ

ظلالهُ وارفة الضفافْ

لكنــها لاشيءَ حين ينحني ويبسط اليمينْ

ومن خلال هذا التعانق كان للطبيعة فضل كبير على الشاعر في إلهامه روائعها الخالدة ، كما كان للحب فضل أكبر في كشف المخبوء من جمالها ورصد إحساسه لجميع دقائقها ، وصهر مشاعره الوجدانية في نفسه ومزجها بكل ما يحيط به من صورها . (٢)

إذ تطالعنا في تجربة إسماعيل الاعتزاز بوحي عاطفة صادقة شاء الحب أن ينفثها متباينة الألوان يبتسم من خلالها تارة فترى الشعر الغزلي هادئا رائقا ويتجهم أخرى فيفجره صارخا مشدوها إذ كان ينظر للمرأة كمصدر للإلهام الفني قبل أن تكون وسيلة للتعاطف الجنسي المجرد الذي تخلقه طبيعة الجمال في نفس الفنان

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوان " لا بد "صـ ١٣٥٣ .

(٢) ينظر الأعمال الكاملة خاتمة ديوان أغاني الكوخ صـ ١٨٢ .

(٣) ينظر الأعمال الكاملة خاتمة ديوان أغاني الكوخ صـ ١٨٢ .

الخاتمة

* وبعد هذه الإطلالة السريعة على أبعاد التجربة في شعر "محمود حسن إسماعيل " نستطيع القول بأنه كان واحدا من الشعراء الذين هيأتهم عوامل كثيرة لأن يتجه في تجربته اتجاهات يفصح فيها عن عواطفه الفياضة ، وتجاربه الإنسانية وانتماءاته القومية والوطنية ٠

* تكشف التجربة الشعرية عند الشاعر عن أبعاد متعددة ومختلفة منها : البعد الاجتماعي: الذي تميز به الشاعر وتفرد فيه من بين أقرانه تعبيرا عن قضايا القرية والفلاح ، والبعد الوطني: الذي يدل على إحساس وطني عال ، وشعور جارف بواقع الأمة ، و البعد الإنساني: الذي لم يفارق الشاعر في كثير من تجاربه دالا رحابة إنسانيته ، وتعدد أبعادها وتحررها من الشرور والآثام ، والبعد الجمالي: الذي جسد من خلاله مصادر الإحساس بالجمال في الطبيعة والكون والبعد الصوفي : الذي جاء أكثر عمقا وتأثيرا وارتباطا بعالم الواقع والمثالية ومظهرا من مظاهر تجربة أوسع وأشمل هي تجربته التأملية ٠

* جعل "محمود حسن إسماعيل " شعره فى خدمة الريف، ولهذا سمّى ديوانه الأول "أغانى الكوخ" الذى يعدّ أول ثورة فى الشعر العربى على الاستعمار والإقطاع فى وقت لم يستطع أحد أن يعبر عن الظلم الفادح الذى يكابده الفلاح المسكين.

* يمثل "محمود حسن إسماعيل"صوتاً فنياً عميق التميّز والتفرّد فى الشعر العربي إذ اتخذ موقفاً وسطاً بين القديم والجديد وجمع عناصر شتّى من المدارس الأدبية كالرومانسية والواقعية فى شعره ٠

* استطاع الشاعر أن يسرد سائر التجارب التي عاشها طوال حياته المليئة بالفقر و المعاناة بهذه الكمية و الكيفية الأدبية و الذي صور أحزان الفلاحين البسطاء و معاناتهم ، أولئك الذين نشأ بينهم و عاشرهم و تأثر بهم فتشرب كل هذه الصور التي عكسها في شعره طوال حياته و هذه الدواوين الشعرية تحمل عبير حياته ، وعمق تجربته التي عايش من خلالها تجربة الأمة العربية.

* لم يكن " إسماعيل " شاعرنا مصريا فحسب بل كان أديباً عربياً مسلماً تغلغل شعره فى وجدان كل عربي و شاع صيته فى البلدان العربية ، وجاءت تجاربه وصفاً للمجتمع ، وتصويرا للطبيعة ، وتجسيدا للحرمان ، ودعوة إلى الاعتصام بالإيمان وكان متأثراً بالطبيعة أشد التأثر.

* يعد الإنسان هو المحور الذي تدور حوله أبعاد التجربة الشعرية عند "إسماعيل" كما يشكل البعد الإنساني ظاهرة جديرة بالتوقف إذ يبدو إضفاء الطابع الإنساني وما يتصل به من مشاعر على المشهد الطبيعي وبث الحياة في تضاعيفه.

* تحقق لهذه التجربة الصدق الفني أو الشعوري ، وسمو المعاني وإنسانيتها ، وقد تجلى ذلك من خلال انفعال الشاعر بتجربته واستغراقه فيها والتعبير عنها بصدق دون زيف أو مبالغة.

* ترك محمود حسن إسماعيل تجربة شعرية زاخرة بكل معاني الحياة وبكل نبضة من نبضات القرية بدقائقها وتفاصيلها وبكل أمل من آمال الإنسان المصري والعربي ، بل والعالمي .

مراجع البحث

أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة أ / رجاء النقاش طبع دار القلم بيروت لبنان د / ت .

الأثر الصوفي في شعر محمود حسن إسماعيل قراءة نقدية د محمد عيد طبع دار الفكر بيروت لبنان .

الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د / عبد القادر القط ط٢ دار النهضة العربية بيروت لبنان ١٩٨١ م .

الأدب العربي الحديث د / محمد عبد المنعم خفاجي ج ٢ الطبعة الأولى مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

الأدب في التراث الصوفي د / محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة غريب القاهرة د / ت .

أدب المهجريين بين أصالة الشرق وفكر الغرب د / نظمي عبد البديع دار الفكر العربي ١٩٧٦ م .

أعلام أسيوط ، كتاب صادر عن محافظة أسيوط سنة ١٩٨٨م .

الأعمال الكاملة للشاعر محمود حسن إسماعيل ، دار سعاد الصباح القاهرة ٢٠٠٦م .

بناء القصيدة العربية الحديثة د/ علي عشري زايد دار مرجان للطباعة ط ١ ١٩٧٨ م .

بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث د / يوسف حسين بكار ط ١ دار الأندلس للطباعة والنشر د / ت .

التصوف في الشعر العربي د / عبد الحكيم حسان مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٤ م

التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل د / مصطفى السعدني منشأة المعارف الإسكندرية د / ت

تطور الأدب الحديث في مصر د / أحمد هيكل ط ٦ دار المعارف ١٩٤١ م .

تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث د / حسن أحمد الكبير طبع دار الفكر العربي .د / ت .

تعالق التجربتين الشعرية والصوفية لدى صلاح عبد الصبور الأستاذ علي عشا مجلة جامعة دمشق المجلد الأول ٢٠٠٩ م .

التفسير النفسي للأدب د/ عز الدين إسماعيل دار العودة بيرة د / ت .

جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د / عبد العزيز الدسوقي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م دروس في تاريخ آداب اللغة العربية ط ١ مطبعة دار السلام ببغداد ١٩٢٨ .

الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر د \ محمد فتوح أحمد دار المعارف ١٩٧٧ .

رؤية جديدة لشعرنا القديم د \ حسن فتح الباب ط ١\ دار الحداثة بيروت ١٩٨٤ م .

شعر الطبيعة في الأدب العربي د\ سيد نوفل ط٢ دار المعارف د \ ت .

شعر محمود حسن إسماعيل محاولات للتذوق الفني د \ أنس داود الطبعة الأولى هجر للطباعة د \ ت .

صلاح عبد الصبور حياتي في الشعر دار اقرأ بيروت ١٩٨٣ .

غايات الأدب في مجتمعنا المعاصر د \ محمود علي السمان الجهاز المركزي للكتب الجامعية والوسائل التعليمية ١٩٨١ م .

في النقد الأدبي د \ شوقي ضيف دار المعارف ط ٦ \ ١٩٨١ م .

قراءة الشعر د \ محمود الربيعي دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٧م .

قضايا النقد الأدبي د \ بدوي طبانة دار المريخ للطباعة الرياض ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي د \ محمد مندور الحلقة الثالثة مطبوعات معهد الدراسات العربية ١٩٨٧ .

محمود حسن إسماعيل \ سلوان محمود ، وعزت سعد الدين الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٥م.

محمود حسن إسماعيل مدخل إلى عالمه الشعري د\ عبد العزيز الدسوقي سلسلة كتابك دار المعارف ١٩٧٨ .

مطارحات في فن القول د\ محي الدين صبحي ط٣ دار العودة بيروت لبنان ١٩٦٩م .

لنقد الأدبي الحديث د \ محمد غنيمي هلال دار العودة بيروت لبنان ١٩٨٧ م .

النقد التطبيقي والموازنات د \ محمد الصادق عفيفي مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء .